خُلاصَةُ الزُّهُورِ

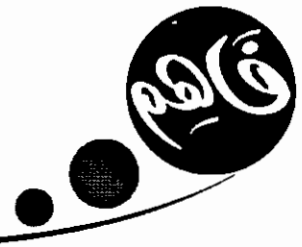

إنْ الثناءَ الحَسَنَ على الرَّجُلِ
بما فيهِ مَتَى تحقَّقتِ المَصْلَحَةُ،
كتَأْلِفِهِ، أو تشجِيعِهِ، أو اتِّقاءِ شَرِّهِ. سُنَّةٌ مُتَّبعةٌ.

والنَّاظِرُ في كتابِ اللهِ يَجِدُ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ مِنَ اللهِ ـ سُبْحانَهُ ـ على بَعْضِ عبادِهِ الصَّالحِينَ ـ ما يَمْلأُ الصَّدْرَ والنَّحْرَ:

مِنها قَوْلُهُ -سُبحانَهُ- في الثَّناءِ على نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (الإسراء: ٣).

وقَوْلُهُ -تعالى- في حَقِّ إبراهيمَ -عليه السلام-: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (هود: ٧٥).

وقَوْلُهُ -تعالى- في حَقِّ سُلَيمانَ -عليه السلام-: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠).

وقَوْلُهُ -تعالى- في حَقِّ أيوبَ -عليه السلام-: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص: ٤٤).

وقَوْلُهُ ـ تعالى ـ في حَقِّ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم: ٤).

وأمَّا السُّنَّةُ فَلَوْ أَلْقَيْنا نَظْرَةً في دَواوِينِ السُّنَّةِ وفي كُتُبِ المَناقِبِ، لَرَأَيْنا عَجَبًا، فَقَدْ مَدَحَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ كثيرًا مِنَ الصَّحابةِ[1]، فَمَدَحَ بَعْضَهُمْ بشارةٍ، وبَعْضَهُمْ لأَجْلِ

(١) جاءتْ أحاديثُ في النَّهْيِ عَنِ المَدْحِ، كما جاءتْ أحاديثُ مُصَرِّحةٌ بالمَدْحِ، ونَحْنُ نَتْرُكُ المَجالَ لأَهْلِ الرُّسُوخِ في العِلْمِ، لِيَضَعُوا النُّقَطَ على الحُرُوفِ.
يَقُولُ النَّوَوِيُّ ـ رحمه الله ـ كما في «شرح مسلم» (ص١٧٢١) ـ قَبْلَ أَنْ يَسُوقَ أحاديثَ النَّهْيِ ليشرَحَها ـ: «ذكر مُسْلِمٌ في هذا البابِ الأحاديثَ الواردةَ في النَّهْيِ عَنِ المَدْحِ، وقَدْ جاءتْ أحاديثُ كثيرةٌ في «الصَّحيحين» بالمَدْحِ في الوَجْهِ، قال العُلَماءُ: وطريقةُ الجَمْعِ بَيْنَهَا: أَنَّ النَّهْيَ مَحْمُولٌ على المُجازفةِ في المَدْحِ، والزِّيادةِ في الأَوْصَافِ، أَوْ على مَنْ يُخَافُ عليه فِتْنَةٌ مِنْ إعجابٍ ونَحْوِهِ إذا سَمِعَ المَدْحَ، وأَمَّا مَنْ لَا يُخَافُ عليه ذلك لكمالِ تَقْواهُ، ورُسُوخِ عَقْلِهِ ومَعْرِفَتِهِ ـ فلا نَهْيَ في مَدْحِهِ في وَجْهِهِ، إذا لم يَكُنْ فيه مُجازفةٌ، بَلْ إنْ كان يَحْصُلُ بذلك مصلَحةٌ: كنشطِهِ للخَيْرِ، والازديادِ مِنْهُ، أَوِ الدَّوامِ عليه، أَوِ الاقتداءِ بِهِ ـ كان مُسْتَحَبًّا، واللهُ أَعْلَمُ». أهـ

الاقتداءِ به، وبَعْضَهُمْ حَثًّا لَهُ على الازديادِ مِنَ الخَيْرِ[١]، وبَعْضَهُمْ تألُّفًا لقَلْبِهِ، وكان مَدْحُهُ - ﷺ - لِبَعْضِهِمْ خيرًا مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ لَوْ كانتْ لَهُ[٢].

فَمَنْ كان مادحًا أَخَاهُ فَلْيَقتدِ بالأُسْوَةِ الحَسَنَةِ، ولْيَحْتَسِبْ أَخَاهُ[٣]، ولْيَحْذَرِ الشَّطَطَ[٤].

وبابُ المَدْحِ بابٌ عظيمٌ يحتاجُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وخاصَّةً العُلَماءَ والمُرَبِّين؛ فَرُبَّ مَمْدُوحٍ يَنْتَفِعُ بالثَّناءِ الحَسَنِ أَعْظَمَ مِن انتفاعِهِ بالدِّرْهَمِ والدِّينارِ.

قال أبو الطَّيِّب:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

وأمَّا في اتِّقاءِ الشَّرِّ، فإنَّ المادحَ يَعْمِدُ لِمَحاسِنِ المَمْدُوحِ، ويَنْشُرُها بَيْنَ يَدَيْهِ، ولا يَخْلُو رَجُلٌ مِنْ خَيْرٍ.

---

(١) جاء في البخاريِّ (١١٢١، ١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩) مِنْ حديثِ سالم بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ قال: كان الرَّجُلُ في حياةِ النَّبيِّ - ﷺ - إذا رَأَى رُؤْيا قصَّها على رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، فَتَمنَّيْتُ أنْ أَرَى رُؤْيا، فأَقُصَّها على رَسُولِ الله - ﷺ -، وكُنْتُ غُلامًا شابًّا، وكُنْتُ أَنَامُ في المَسْجِدِ على عَهْدِ رَسُولِ الله - ﷺ -، فَرَأَيْتُ في النَّوْمِ كأنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي، فَذَهبا بي إلى النَّارِ، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ، وإذا لها قَرْنان، وإذا فيها أُناسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ، قال: فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ، فقال لي: لَمْ تُرَعْ. فَقَصَصْتُها على حَفْصَةَ، فَقَصَّتْها حَفْصَةُ على رَسُولِ الله - ﷺ -، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ». فكان بَعْدُ لا يَنَامُ من اللَّيلِ إلَّا قَلِيلًا.

(٢) جاء في البُخاريِّ (٩٢٣) عَنْ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ: أنَّ رَسُولَ الله - ﷺ - أُتِي بمالٍ، أَوْ بسَبْيٍ فَقَسَمَهُ، فأعْطى رجالًا وتَرَكَ رجالًا، فَبَلَغَهُ أنَّ الَّذين تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ أَثْنى عليه، ثمَّ قال: «أَمَّا بَعْدُ، فوالله، إنِّي لأُعْطي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، والَّذي أَدَعُ أَحَبُّ إليَّ مِنَ الَّذي أُعْطِي، ولكِنْ أُعْطِي أَقْوامًا لما أَرَى في قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى والخَيْرِ، فيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ». فوالله، ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمةِ رَسُولِ الله - ﷺ - حُمْرَ النَّعَمِ.

(٣) جاء في البُخاريِّ (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) مِنْ حديثِ أَبِي بَكْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «إذا كان أَحَدُكُمْ مادحًا صاحِبَهُ ـ لا مَحَالَةَ ـ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، واللهُ حَسِيبُهُ، ولا أُزَكِّي على اللهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ ـ إنْ كان يَعْلَمُ ذاك ـ كذا وكذا». ومعنى: أَحْسِبُهُ: أَظُنُّ فيه الخَيْرَ؛ لوجودِ الظَّاهِرِ المُقتضي لذلك.

(٤) الشَّطَطُ ـ بالتَّحريكِ ـ: مُجاوَزَةُ الحدِّ في كُلِّ شيءٍ.

قال العلامةُ ابنُ حَزمٍ ـ رحمه الله ـ: «إنَّهُ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ ـ أَي: المَدْحِ ـ في الإقصارِ عَنِ الشَّرِّ، والتَّزيُّدِ مِنَ الخَيْرِ، وفي أَنْ يَرْغَبَ في ذلك الخُلُقِ المَمْدُوحِ.

ولَقَد صَحَّ عِندي: أنَّ بَعْضَ السَّائسين للدُّنيا لَقِيَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الأَذَى للنَّاسِ، وقَدْ قُلِّدَ بَعْضَ الأَعْمالِ الخبيثةِ، فقابله بالثناء عليه، وبأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ شُكْرَهُ مُسْتَفِيضًا، ووَصَفَهُ بالجميلِ والرِّفقِ منتشرًا، فكان ذلك سَبَبًا إلى إقصارِ ذلك الفاسقِ عَنْ كثيرٍ مِنْ شَرِّهِ»[1].

ولْيَحْذَرِ المادحُ مِنْ أَنْ يَشُوبَ[2] مَدْحَهُ بشيءٍ مِنَ الكَذِبِ؛ فإنَّ ذلك صِفَةُ أَهْلِ المَلَقِ[3]، بَلْ هُوَ ذَمٌّ على الحقيقةِ.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ ـ رحمه الله ـ:

«رُبَّ مَوْصُوفٍ بالمَكَارِمِ والمَسَاعي[4] وَهُوَ مَعْروفٌ بالمكارِهِ والمَسَاوي[5]، ومَنْعُوتٌ بالحِلْمِ الرَّاسي، والعِلْمِ الرَّاسِخِ[6]، وهُوَ مِنْهُما على أَمْيالٍ وفَراسخِ[7]، حَسْبُكَ بهذا الشَّطَطِ مُسْتَنْزِلًا للسَّخَطِ»[8].

وقال العلَّامة -ابنُ حَزمٍ- ـ رحمه الله ـ:

«أَبْلَغَ في ذَمِّكَ مَنْ مَدَحَكَ بما لَيْسَ فِيكَ؛ لأَنَّهُ نَبَّهَ على نَقْصِكَ، وأَبْلَغَ في مَدْحِكَ مَنْ ذَمَّكَ بما لَيْسَ فِيكَ؛ لأَنَّهُ نبَّهَ على فَضْلِكَ»[9].

وسَمِعَ ابْنُ الرُّوميِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا، ويُبالِغُ في مَدْحِهِ.

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢١).

(٢) الشَّوْب: الخَلْط، وبابُهُ قال.

(٣) المَلَقُ ـ بالتَّحريك ـ: أنْ تُعطيَ باللِّسان ما لَيْسَ في القَلْبِ.

(٤) المساعي: جَمْعُ مَسْعَاةٍ، وهي المَكْرُمَةُ والمَعْلَاةُ في أنواعِ المَجْدِ والجُودِ.

(٥) المساوي: العيوب.

(٦) الراسخ: البالغ الرُّسُوخ، وهُوَ الثَّبات.

(٧) فراسخ: جَمْعُ فَرْسَخٍ، وهُوَ مِقْياسٌ قديمٌ للمسافةِ، ويَقْصِدُ: أَبْعادًا كثيرةً.

(٨) «أطواق الذَّهب» (ص١٨١).

(٩) «الأخلاق والسِّير» (ص١١٤).

فأنشأ يقول:

إذا ما وَصَفْتَ امْرَأً لامْرِىءٍ ... فَلاَ تَغْلُ[٢] في وَصْفِهِ واقْصِدِ[٣]

فإنَّكَ إنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فِيهِ إلى الأَمَدِ[٤] الأَبْعَدِ

فَيَضْؤُلُ[٥] مِنْ حَيْثُ عَظَّمتَهُ ... لِفَضْلِ المَغِيبِ على المَشْهَدِ[٦]

جُمَانٌ:

إذا أَعْيَتِ القُلُوبُ مَفَاتِيحَها، فعالِجْها بالثَّناءِ الحَسَنِ.

(١) الغُلُوُّ: مُجاوزُ الحدِّ، وبابُهُ سَمَا.

(٢) القَصْدُ: ضدُّ الإفراطِ كالاقْتصادِ، وبابُهُ ضَرَبَ.

(٣) الأَمَد بالتَّحريك: الغاية والمُنْتَهَى.

(٤) يَضْؤُلُ: يَحْقُرُ، وبابُهُ ظَرُفَ.

(٥) «أدب الدُّنيا والدين» (ص٣١٧).

obeikandl.com

أَطْيَبُ الطِّيبِ

أَوْصَى اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ عبادَهُ بالقَوْلِ الحَسَنِ، فقال:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء: ٥٣).

﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣).

ووَفَّقَهُمْ ـ سُبحانَه وتعالى ـ للكلامِ الطَّيِّبِ، قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ (الحج: ٢٤).

وأَمَرَهُمْ بالدَّفْعِ بالَّتي هي أَحْسَنُ، فقال:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤).

وأَخْبَرَ أَنَّ الكَلِمةَ الطَّيِّبةَ تُرْفَعُ إليه مِنْ جُمْلَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ، فقال:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: ١٠).

نَتيجةٌ:

قال رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ».

(رواه البخاريُّ (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ).

ضَجِيجُ البَحْرِ

إنَّ خَفْضَ الصَّوْتِ دَليلُ السَّكينةِ والوَقارِ، وزِينةٌ لِصاحِبِه، وما عَبَرَ الإنسانُ عَنْ طَيْشِهِ بِمِثْلِ الحِدَّةِ والغِلْظَةِ والزُّعاقِ.

مِنْ تَوْجِيهِ لُقْمَانَ الحكيم لابْنِهِ غَضُّ الصَّوْتِ وتَقْصِيرُهُ، قال اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- على لسانِه: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ (لقمان: ١٩).

قال ابنُ سَعديٍ -رحمه الله- في تفسيرها: «﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ أَدَبًا مَعَ النَّاسِ ومَعَ اللهِ، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أي: أَفْظَعَها وأَبْشَعَها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾، فَلَوْ كان في رَفْعِ الصَّوْتِ فائدةٌ ومصلحةٌ، لما اخْتُصَّ بذلك الحِمارُ الَّذي قَدْ عَلِمْتَ خِسَّتَهُ وبَلَادَتَهُ»[١].

فتبيَّن لك أنَّ خَفْضَ الصَّوْتِ أَدَبٌ عَزِيزٌ، وهُوَ أَدَبُ حَمَلَةِ القُرْآنِ.

قال ابنُ مَسعُودٍ -رضي الله عنه-: «يَنْبغي لحامِلِ القُرْآنِ أنْ يَكُونَ باكيًا مَحْزُونًا، حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا يَنْبغي لحامِلِ القُرْآنِ أنْ يَكُونَ جافيًا، ولا غافلًا، ولا صخَّابًا، ولا صيَّاحًا، ولا حديدًا[٢]»[٣].

والنَّاظِرُ إلى البَحْرِ يَجِدُ الصَّخَبَ والضَّجيجَ على الشَّاطِئِ وعِنْدَ الصُّخُورِ، حَيْثُ المَاءُ[٤] ضَحْلٌ، لا جَوَاهِرَ فِيهِ ولا دُرَرَ، ويَجِدُ الهُدُوءَ لَدَى الماءِ الأَعْمَقِ، حَيْثُ نَفَائِسُ البَحْرِ وكُنُوزُهُ، وفي بَعْضِ الأَمْثَالِ: «المَاءُ الأَعْمَقُ أَهْدَأُ».

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص٦٤٩).

(٢) الحديد: يعني الشَّديدَ الغَليظَ.

(٣) «الفوائد» لابْنِ القيِّم (ص١٤٤).

(٤) الضَّحْلِ ـ بالفَتْحِ ـ: الماءُ القليلُ على الأرضِ لا عُمْقَ لَهُ، والجَمْعُ أَضْحالٌ، وضُحُولٌ، وضِحالٌ.

قال أُستاذُنا عَبْدُ الكَرِيمِ العمادُ -حفظه الله-:

أَرَى البَحْرَ حَيْثُ العُمْقُ والـدُّرُّ هادِئًا ... ويُلْقَى ضَجِيجُ البَحْرِ عِنْدَ السَّواحِلِ
فكُنْ هادئًا طَبْعًا، تكُنْ ذا مَهَابَةٍ ... ولا تَرْفَعَنَّ الصَّوْتَ عِـنْدَ التَّجَـادُلِ
فَـصَـوْتُـكَ لا يُعْطِيكَ قُـوَّةَ حُجَّةٍ ... وغَضُّكَ لا يُـرْدِيْـكَ[1] بَـيْنَ الأَرَاذِلِ
فَـعَـقْـلُ الفَتَى عُـنْـوانُـهُ في لِسَانِهِ ... وَعِـلْمُ الفَتَى يُعْلِيهِ عَـنْ كُلِّ سَافِلِ[2]

عَسْجَدٌ:

قال ابنُ دُرَيْـدٍ -رحمه الله-: «لَوْ كان رَفْعُ الصَّوْتِ خَيْرًا، ما جَعَلَهُ اللهُ لِلْحَمِيرِ».

(«زاد المسير» لابْنِ الجَوْزِيِّ (٦/ ٣٢٣).

(١) لا يُرْدِيكَ: لا يُهْلِكُكَ.

(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

openkandil.com

رأس الحكمة

إنَّ الصَّمْتَ حِكْمةٌ، وقَليلٌ فاعِلُهُ،
يَكْسِبُ صاحِبَهُ المَهابةَ والوَقارَ،
ويَكْسُو حديثَهُ ثَوْبَ البَهاءِ والجَلالِ،
ويُحَلِّيهِ بحِلْيَةِ الاعْتِبارِ.

يُخْبِرُنا اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ أنَّ كَثيرًا ممَّا يَتَناجَى بِهِ النَّاسُ مَتَى عَرِيَ مِنَ الفائدةِ فلا خَيْرَ فِيهِ.

قال -تعالى-: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء: ١١٤).

وإلى ذلك أرشَدَنا النَّبيُّ - ﷺ - كما في «الصَّحيحَيْنِ»(١) مِنْ حَديثِ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ**».

قال النَّوويُّ - رحمه الله -: «اعْلَمْ أنَّهُ يَنْبغي لكُلِّ مُكَلَّفٍ أنْ يَحْفَظَ لسانَهُ عَنْ جَميعِ الكلامِ، إلَّا كلامًا ظَهَرَتْ فِيهِ المصلحةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكَلامُ المُباحُ وتركُهُ في المصلحةِ، فالسُّنَّةُ الإمساكُ عَنْهُ؛ لأنَّهُ قَدْ يَجُرُّ الكَلامُ المُباحُ إلى حَرامٍ أوْ مَكْرُوهٍ، وذلك كثيرٌ في العادةِ، والسَّلامةُ لا يَعْدِلُها شيْءٌ»(٢).

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ -غفر الله لَهُ-: «خَيْرُ اللِّسانِ المَخْزُونُ(٣)، وخيرُ الكلامِ المَوْزُونُ(٤)، فحدِّثْ إذا حدَّثْتَ بأفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ، وزَيِّنْ حَديثَكَ بالوَقارِ وحُسْنِ السَّمْتِ،

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).
(٢) «رياض الصَّالحين» (ص٣٩١).
(٣) المخزون: المحفوظُ عَنِ التكلُّمِ بما لا يَليقُ.
(٤) المَوْزُونُ: المُنْتَقى المُحْكَمُ.

وأَرْسِلْ حَدْسَكَ[١] لكلماتِكَ في اتِّساقِ[٢] أنابيبِ السَّمْهَرِيِّ[٣]، ولا تَقْرَعْ في إرسالِها ظنابيبَ[٤] المَهْرِيِّ[٥]، إنَّ الطَّيْشَ في الكَلَامِ يُتَرْجِمُ عَنْ خِفَّةِ الأَحْلَامِ[٦]، وما دَخَلَ الرِّفْقُ شَيْئًا إلَّا زَانَهُ[٧]، وما زَانَ المُتكلِّمَ إلَّا الرَّزانةُ[٨]»[٩].

وقال بَعْضُ البُلَغَاءِ: «الْزَمِ الصَّمْتَ؛ فإنَّهُ يُكْسِبُكَ صَفْوَ المَحَبَّةِ، ويُؤْمِنُكَ سُوءَ المَغَبَّةِ[١٠]، ويُلْبِسُكَ ثَوْبَ الوَقَارِ، ويَكْفِيكَ مَئُونَةَ[١١] الاعتذارِ»[١٢].

وقال بَعْضُ الفُصَحَاءِ: «اعْقِلْ لسانَكَ إلَّا عَنْ حَقٍّ تُوَضِّحُهُ، أو باطلٍ تُدْحِضُهُ، أَوْ حِكْمةٍ تَنْشُرُها، أو نعمةٍ تَذْكُرُها»[١٣].

وقال أبو الفَتْحِ البُسْتيُّ:

تَكَلَّمْ وسَدِّدْ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّما ... كَلَامُكَ حَيٌّ، والسُّكُوتُ جَمَادُ

فإنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُه ... فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدادِ سَدادُ[١٤]

---

(١) الحَدْس بالفَتْح: التَّخمين والتَّوهُّمُ في معاني الكلامِ والأُمُور.

(٢) اتِّساق: انتظام.

(٣) السَّمْهَرِيّ: الرُّمْحُ الصُّلْبُ، والمَنْسُوبُ إلى سَمْهَرِ زَوْجِ رُدَيْنَةَ وكانا مُثَقِّفَيْنِ للرِّماحِ، أوْ إلى قَرْيةٍ بالحَبَشَةِ.

(٤) ظنابيب: جَمْعُ ظُنْبُوب ـ بِزِنَةِ عُصْفُور ـ، وهُوَ حَرْفُ العَظْمِ اليابسُ مِنَ السَّاقِ، والرَّجُلُ يَقْرَعُ ظُنْبُوبَ بَعِيرِهُ إذا أَنَاخَهُ؛ ليركبَهُ رُكُوبَ المُسْرِعِ إلى الشَّيْءِ.

(٥) المَهْرِيّ: البعير المَنْسُوب إلى مَهْرَةَ اسْمِ قَبيلةٍ يمانيةٍ، تَقَعُ جَنُوبَ الجزيرةِ العربيَّة، بَيْنَ حَضْرَمَوْتَ وعُمَانَ.

(٦) الأحلام: العقول، واحدُها حِلْمٌ ـ بالكَسْرِ ـ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على حُلُومٍ.

(٧) زانه: زيَّنه وجَمَّلَهُ، وبابُهُ باع.

(٨) الرَّزانة: ضدُّ الخِفَّة.

(٩) «أطواق الذَّهب» (ص١٦٢).

(١٠) المغبَّة: عاقبة الشَّيْءِ.

(١١) المَئُونة: الثِّقَلُ.

(١٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٧).

(١٣) المرجع السابق (ص٢٧٧).

(١٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٦).

وَمِنْ أَجْمَلِ ما قِيلَ في الصَّمْتِ قَوْلُ الأَعْوَرِ الشَّنِّيِّ:

وكائِنْ[١] تَرَى مِنْ صامتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ، ونِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ[٢]

ياقُوتة:

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه – رحمه الله –: «أَجْمَعَتِ الحُكَماءُ أَنَّ رَأْسَ الحِكْمَةِ الصَّمْتُ».

(السَّمْتُ في الصَّمْتِ) للسُّيوطيِّ (ص٢٤).

(١) كائِنْ: لُغَةٌ في كَأَيِّنْ الَّتي بمنزلةِ كَمْ الخبريَّةِ الدَّالَّةِ على تكثيرِ المَعْدُودِ.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٦).

obeikandl.com

فُضُولُ المَنطِقِ

إنَّ فُضُولَ الكَلامِ مَضَلَّةٌ للفَهْمِ، مَكْسَبَةٌ للوَهْمِ؛ لأنَّ مَنْ قَلَّ كلامُهُ كَثُرَ صَوابُهُ، ومَنْ كَثُرَ كلامُهُ فَصَوابُهُ نَزْرٌ في ظُلُماتِ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ.

فُضُولُ الكَلام ممَّا يُزْري بصاحبِه، ويُكْسِبُهُ النَّقْصَ؛ لأنَّ فُضَلاءَ النَّاسِ يَكْرَهُونَ مَنْ هذا حالُهُ، وتَلْعَنُهُ قُلُوبُهُمْ[٣]، ومَنْ مِنَّا يَرْضَى لنَفْسِه بذلك؟.

والنَّبيُّ – ﷺ – يَقُولُ: «**وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرةِ ـ أَسْوَؤُكُمْ أَخْلاقًا: الثَّرْثارُونَ[٤]، المُتَفَيْهِقُونَ[٥]، المُتَشَدِّقُونَ[٦]**»[٧].

قال الماوَرْديُّ – رحمه الله –: «قال أَبُو عُثْمانَ الجاحظُ: للكلامِ غايةٌ، ولنَشَاطِ السَّامعينَ نهايةٌ، وما فَضَلَ عَنْ مِقْدارِ الاحتمالِ، ودَعَا إلى الاسْتِثْقالِ والمَلَالِ ـ فذلك الفاضِلُ هُوَ الهَذَرُ[٨].

---

(١) **فُضُول**: جَمْعُ فَضْلٍ ـ بالفَتْحِ ـ، وهُوَ ما زاد عَنِ الحاجةِ.

(٢) **النَّزْر** ـ بالفَتْحِ ـ: القَليل.

(٣) **تَلْعَنُهُ قُلُوبُهُمْ** أَيْ: تُبْغِضُهُ.

(٤) **الثَّرْثَار**: هُوَ كَثيرُ الكَلامِ تَكَلُّفًا فيما لا فائدةَ فيه.

(٥) **المُتَفَيْهِق**: أَصْلُهُ مِنَ الفَهْقِ، وهُوَ الامْتِلاءُ، وهُوَ الَّذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلامِ، ويتوسَّعُ فيه، ويُغْرِبُ به تكبُّرًا وارتفاعًا، وإظهارًا للفضيلةِ على غَيْرِه.

(٦) **المُتشدِّق**: المُتطاولُ على النَّاسِ بكلامِه، المتكلِّم بملْءِ فيه تفصُّحًا وتعظيمًا لكلامِه.

(٧) (حسن) أخرجه أَحمدُ (٤/ ١٩٣)، والتِّرْمذيُّ (٢٠١٨) عن جابرٍ – رضي الله عنه –، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩١).

(٨) **الهَذَرُ** ـ بفتحتَيْنِ ـ: سَقَطُ الكلامِ.

وصَدَقَ أَبُو عُثْمانَ؛ لأنَّ الإكثارَ مِنْهُ ـ وإنْ كان صَوَابًا ـ يُمِلُّ السَّامعَ، ويُكِلُّ الخاطِرَ[١]، وهُوَ صادرٌ عَنْ إعْجابٍ بِهِ، لَوْلَاهُ قَصَرَ عَنْهُ، ومَنْ أُعْجِبَ بكلامِهِ اسْتَرْسَلَ فِيهِ، والمُسْتَرْسِلُ في الكلامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ، دَائِمُ العِثَارِ»[٢].

وَقِيلَ في مَنْثُورِ الحِكَمِ: «إذا تَمَّ العَقْلُ، نَقَصَ الكَلَامُ»[٣].

وقال بَعْضُ البُلَغاءِ: «عِيٌّ[٤] تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ؛ فاقْتَصِرْ مِنَ الكَلامِ على ما يُقِيمُ حُجَّتَكَ، ويَبْلُغُ حاجَتَكَ، وإيَّاكَ وفُضُولَهُ؛ فإنَّهُ يُزِلُّ القَدَمَ، ويُورِثُ النَّدَمَ»[٥].

وقال القاسميُ ـ رحمه الله ـ: «إيَّاكَ وفُضُولَ الكَلامِ؛ فإنَّهُ يُظْهِرُ مِنْ عُيُوبِكَ ما بَطَنَ، ويُحَرِّكُ مِنْ عَدُوِّكَ ما سَكَنَ، فكلامُ الإنسانِ بَيَانُ فَضْلِهِ، وتُرْجُمانُ عَقْلِهِ؛ فاقْصُرْهُ على الجَمِيلِ، واقْتَصِرْ مِنْهُ على القَلِيلِ»[٦].

وقال بَعْضُ الشُّعَراءِ:

إنَّ الكَلامَ يَغُرُّ القَوْمَ جِلْوَتُهُ[٧] ... حَتَّى يَلِجَ[٨] بِهِ عِيٌّ وإكْثَارُ[٩]

وقال ابْنُ بلالٍ الأنْصارِيُّ:

وَلَنْ يَهْلِكَ الإنسانُ إلَّا إذا أَتَى ... مِنَ الأَمْرِ ما لَمْ يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ

فَأَقْلِلْ إذا ما قُلْتَ قَوْلًا؛ فإنَّهُ ... إذا قَلَّ قَوْلُ المَرْءِ قَلَّ خَطَاؤُهُ[١٠]

---

(١) يُكِلُّ الخاطرَ: يُتْعِبُهُ ويُعْيِيهِ.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٩).

(٣) المرجع السَّابق (ص٢٧٩).

(٤) العِيُّ ـ بالكَسْرِ ـ: الحَصَرُ وَثِقَلُ اللِّسانِ.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٦) «جوامع الأدَبِ والأخلاق» (ص٦).

(٧) جَلْوَةُ الشَّيْءِ ـ بالتَّثْليثِ ـ: عَرْضُهُ مَجْلُوًّا مَكْشُوفًا.

(٨) يَلِج: يَدْخُل، وبابُهُ جَلَسَ، ولِجَةً ـ أيضًا ـ.

(٩) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٠).

(١٠) «رَوْضَةُ العُقلاء» (ص٧٣).

جَوْهَرَةٌ:

قال عَطَاءُ بْنُ أبي رَبَاحٍ – رحمه الله –: «بِتَرْكِ الفُضُولِ تكْمُلُ العُقُولُ».

(بَهْجة المجالسِ) لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٦١).

obeikandl.com

حُسنُ الخُلُقِ

إنْ مَنْ رُزِقَ الأَخْلَاقَ الحَسَنَةَ تَرَأَّسَ وساد، وأَحَبَّهُ العِبَادُ، وفُتِحَتْ لَهُ القُلُوبُ.

حُسْنُ الخُلُقِ شيْءٌ هَيِّنٌ: وَجْهٌ طَلْقٌ، وكَلَامٌ لَيِّنٌ، ومُعاملةٌ بالحُسْنَى[١].

عَامِلِ النَّاسَ بُخُلْقٍ رَقِيقٍ ... وَالْقَ مَنْ تَلْقَى بِوَجْهٍ طَلِيقْ

فَإِذَا أَنْتَ جَمِيلُ الثَّنَاءِ ... وإذا أَنْتَ كَثِيرُ الصَّدِيقْ

وَمَنْ جَهِلَ مَعْرِفَتَهُ، فَلْيَقْتَدِ بالأُسْوَةِ الحَسَنةِ، والرَّحْمةِ المُهْدَاةِ في أقوالِهِ، وأفعالِهِ، وأحْوالِهِ.

قال ابنُ حَزْمٍ -رحمه الله-: «مَنْ أَرَادَ خَيْرَ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وعَدْلَ السِّيرةِ، والاحْتِوَاءَ على مَحَاسِنِ الأخلاقِ كُلِّها، واستحقاقَ الفضائلِ بأَسْرِها ـ فَلْيَقْتَدِ بمحمَّدٍ -ﷺ-، ولْيَسْتَعْمِلْ أخلاقَهُ وسَيرَهُ ما أمْكَنَهُ، أعاننَا اللهُ على الاتِّساءِ بِهِ بمنِّهِ وكَرَمِهِ»[٢].

وقال ابنُ القيمِ -رحمه الله-: «جَمَعَ النَّبيُّ -ﷺ- بَيْنَ تَقْوَى اللهِ وحُسْنِ الخُلُقِ؛ لأنَّ تَقْوَى اللهِ تُصْلِحُ ما بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ ربِّهِ، وحُسْنَ الخُلُقِ يُصْلِحُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ خَلْقِهِ، فَتَقْوَى اللهِ تُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةَ اللهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ يَدْعُو النَّاسَ إلى محبَّتِهِ»[٣].

---

(١) انظر «الأخلاق بَيْنَ الطَّبْعِ والتَّطَبُّعِ» للمؤلِّف، ففيهِ بَيَانُ ما أُجْمِلَ ها هُنا، وَفَّقَ اللهُ الجميعَ للعِلْمِ النَّافعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ.

(٢) «الأَخلاق والسِّيَر» (ص٩١).

(٣) «الفوائد» (ص٧٥).

obeikandl.com

قُلتُ: ما رُزِقَ أَحَدٌ ـ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ ـ خيرًا مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ فإنَّ «في سَعَةِ الأَخْلَاقِ كُنُوزَ الأَرْزاقِ»، ولله دَرُّ حافظ إبراهيم حينَ قال:

فإذا رُزِقْتَ خَلِيقَةً[1] مَحْمُودةً ... فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مالٌ، وذَا ... عِلْمٌ، وذَاكَ مَكارِمُ الأَخْلَاقِ

والمَالُ إنْ لَمْ تَدَّخِرْهُ مُحَصَّنًا ... بالعِلْمِ، كان نهايةَ الإمْلَاقِ[2]

والعِلْمُ إنْ لَمْ تكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ[3] ... تُعْلِيهِ، كان مَطِيَّةَ الإخْفَاقِ

لا تَحْسَبَنَّ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ... ما لَمْ يُتَوَّجْ رَبُّهُ[4] بِخَلَاقِ[5].[6]

مَزْجَانَة:

قال الماوَرْدِيُّ ـ رحمه الله ـ:

«إذا حَسُنَتْ أَخْلَاقُ الإنسانِ، كَثُرَ مُصَافُوهُ، وقَلَّ مُعَادُوهُ؛ فَتَسَهَّلَتْ عليه الأُمُورُ الصِّعَابُ، ولانَتْ لَهُ القُلُوبُ الغِضَابُ».

(أدب الدُّنيا والدِّين) (ص٢٤٣).

(١) الخليقة: الخُلُق، والجمعُ خلائق.

(٢) الإملاق: الفَقْرُ، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ: إذا افْتَقَرَ.

(٣) الشمائل: الأخلاق، مُفْرها شِمَالٌ ـ بالكَسْرِ ـ.

(٤) رَبُّهُ: صاحِبُهُ، والجَمْعُ أَرْبَابٌ.

(٥) بِخَلاق ـ بفتح الخاء ـ أي: بنصيب مِنَ الخَيْرِ والصَّلاحِ ومَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

(٦) «جواهر الأدب» لأحمدَ الهاشميِّ (ص٤٩٥).

حُسنُ السَّمْتِ

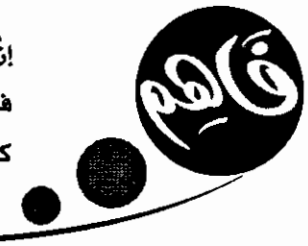

إنَّ حُسنَ السَّمْتِ يُورِثُ صاحِبَهُ
فاهم الوَجَاهةَ والمَنْزِلَةَ في قُلوبِ الخَلْقِ،
كما يُحَلِّيهِ بِحِلْيَةِ الوَقارِ.

حُسنُ السَّمْتِ: هُوَ المَظْهَرُ الخارجيُّ للإنسانِ: مِنْ طريقِ الحَديثِ والصَّمْتِ، والحركةِ والسُّكُونِ، والدُّخُولِ والخُرُوجِ، والسِّيرةِ العَمَلِيَّةِ في النَّاسِ، بحَيْثُ يَسْتطيعُ مَنْ يَراهُ أوْ يَسْمَعُهُ أنْ يَنْسُبَهُ إلى أَهْلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ، والدِّيانةِ والفَلاحِ[١].

وهُوَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزاءِ النُّبُوَّةِ.

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قال: قال رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**إنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ**[٢]، **والسَّمْتَ الصَّالِحَ**[٣]، **والاقْتِصَادَ**[٤] **- جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَةِ**»[٥].

ومَعْنَى الحَديثِ: أنَّ هذِهِ الخِلَالَ مِنْ شمائِلِ الأَنْبياءِ، ومِنْ جُمْلَةِ خِصَالِهِمْ، وأنَّها جُزْءٌ مَعْلُومٌ مِنْ أَجْزاءِ أَفْعَالِهِمْ[٦].

فتبيَّن لك أنَّ السَّمْتَ الحَسَنَ هُوَ المَظْهَرُ الخارجيُّ للإنسانِ؛ فعلى المَرْءِ أنْ تَكُونَ لَهُ

---

(١) «نَضْرَةُ النَّعيم» (٥/ ١٥٨٨).

(٢) **الهَدْي:** السِّيرة والطَّريقة.

(٣) **السَّمْتُ:** حُسْن المَظْهَرِ في أَمْرِ الدِّين.

(٤) **الاقتصاد:** التَّوَسُّط في كُلِّ شَيءٍ يُحْمَدُ فِيهِ التَّوَسُّطُ.

(٥) حسن: أخرجه أحمدُ (١/ ٢٩٦)، وأبو داوُدَ - واللَّفْظُ لَهُ - (٤٧٧٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٦٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٩٩٣).

(٦) «الآداب الشَّرْعيَّة» لابْنِ مُفْلِحٍ (٢/ ٤٢). انظر «التاج المفقود» للمؤلِّف، ففيهِ تَفْصيلٌ وبَيَانٌ لهذا البابِ.

عِنايةٌ خاصَّةٌ بمَظْهَرِه؛ فإنَّ ذلك مِنْ أَسْبَابِ مَيْلِ القُلُوبِ إليه، ولَوْ تَحَلَّى به غَيْرُ أَهْلِه[1]، كما قِيلَ: «الحِلْيَةُ في الظَّاهِرِ تَدُلُّ على مَيْلِ البَاطِنِ».

ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّ حُسْنَ المَظْهَرِ مِنْ أَسْبَابِ مَيْلِ القُلُوبِ ما رَوَاهُ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ - رضي الله عنه - قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - ذاتَ يَوْمٍ، إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إلى النَّبِيِّ - ﷺ -»[2].

فالحِكْمَةُ مِن مَجِيءِ جبريلَ - عليه السلام - بهذِهِ الهَيْئَةِ الحَسَنةِ: أَنْ يَعْظُمَ اتِّجاهُهُمْ إليه، وإجلالُهُمْ لَهُ، وإصغاؤُهُمْ لما يَقُولُ.

حَسِّنْ ثِيَابَكَ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّها ... زَيْنُ الرِّجالِ بها تُعَزُّ وتُكْرَمُ
وَدَعِ التَّخشينَ في الثِّيابِ تَواضُعًا ... فاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّ وتَكْتُمُ
فَجَمِيلُ ثَوْبِكَ لا يَضُرُّكَ بَعْدَما ... تَخْشَى الإلهَ، وتَتَّقِي ما يَحْرُمُ
ورِثَاثُ ثَوْبِكَ لا يَزِيدُكَ رِفْعَةً ... عِنْدَ الإلهِ وأَنْتَ عَبْدٌ مُجْرِمُ

وَلْيَلْبَسِ المَرْءُ ما اعْتَادَهُ أَهْلُ بَلْدَتِه، وخاصَّةً أَهْلَ العِلْمِ والفَضْلِ والدِّينِ، ولا عِبْرَةَ بما دُونَهُمْ، وللمُعْسِرِ قَدَرُهُ، وللمُوسِرِ قَدَرُهُ، ولا يَتْرُكِ العِمَامَةَ[4]؛ فإنَّ «هَدْيَ السَّلَفِ

---

(١) قال ابْنُ عقيل في «الفنون» (١/ ٣١٦): «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ لَهُ سَمْتٌ، وعَلَيه مَسْحَةٌ مِنْ تَواضُعٍ وَذُلٍّ، فَمَتَى خَاصَمَهُ مَنْ عليه سِيما الجَلَادَةِ، كان النَّاسُ كُلُّهُمْ مَعَ صاحبِ السَّمْتِ؛ لما يَغْلِبُ على ظَنِّهِمْ مِنْ ضَعْفِ ذلك السمتِ ووقارِه، وفَوْرَةِ ذلك الجَلْدِ وتَسَلُّطِه، فكانَ مُخَاصِمُ ذلك السمتِ مُعِينًا على نَفْسِه، حَيْثُ حَمَلَ النَّاسَ بخُصُومَتِه على ظَهْرِه، ومَنْ خاصَمَ النَّاسَ خُصِمَ».

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) «حاشية البيجرمي في فِقْهِ الشَّافعيِّ» (١/ ٥٥).

(٤) قال الألْبانيُّ - رحمه الله - في «تمام المِنَّة» (ص١٦٤): «لَيْسَ مِنَ الهَيْئَةِ الحَسَنةِ في عُرْفِ السَّلَفِ اعْتِيادُ حَسْرِ الرأسِ، والسَّيرُ كذلك في الطُّرُقاتِ، والدُّخُولُ كذلك في أماكنِ العِبَادات، بَلْ هذه عادةٌ أَجْنبيَّةٌ، تسرَّبَتْ إلى كثيرٍ مِنَ البلادِ الإسلاميَّةِ حينما دَخَلَها الكُفَّارُ، وجَلَبُوا إليها عاداتِهِمُ الفاسدةَ، فقلَّدهمُ المُسلمون فيها، فأضاعوا بها - وبأمْثَالِها مِنَ التَّقاليدِ - شَخْصِيَّتَهُمُ الإسلاميَّةَ».

الصَّالحِ الحِرْصُ على غِطَاءِ الرَّأْسِ، ولَمْ يَثْبُتْ عَنْ واحدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كان يَسيرُ حاسِرًا»[١].

ولْيَحْرِصْ على الطِّيبِ؛ فإنَّهُ مِنْ أَحَبِّ الأشياءِ إلى الأُسْوَةِ الحَسَنةِ في دَلِّهِ[٢] وهَدْيِهِ وسَمْتِهِ، وفي شَأْنِهِ كُلِّهِ.

«حُبِّبَ إليَّ مِنَ دُنْيَاكُمُ: النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ»[٣].

وكان - ﷺ -: «لا يَرُدُّ الطِّيبَ»[٤]. ونَهَى عَنْ رَدِّهِ: «مَنْ عُرِضَ عليه رَيْحَانٌ، فلا يَرُدَّهُ؛ فإنَّهُ خَفِيفُ المَحْمَلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ»[٥].

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ جَمْرًا حِينَ زُرْتُكُمُ ... لَمْ يُنْكِرِ الكَلْبُ أَنِّي صاحِبُ الدَّارِ

لَكِنْ أَتَيْتُ وَرِيحُ المِسْكِ يَقْدُمُنِي ... والعَنْبَرُ النَّدُّ مَشْبُوبٌ[٦] على النَّارِ

ثَمَرَةٌ:

قال ابنُ الجَوْزِيِّ - رحمه الله -: «قَدْ كان جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ يَقْصِدُونَ العَبْدَ الصَّالحَ للنَّظَرِ إلى سَمْتِهِ وهَدْيِهِ، لا لاقْتِبَاسِ عِلْمِهِ؛ وذلك أَنَّ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ هَدْيُهُ وسَمْتُهُ». (صَيْدُ الخاطِرِ) (ص٢١٦).

---

(١) «المروءة وخوارمها» لمشهورِ بْنِ حسنٍ (ص١٤٥)

(٢) الدَّلُّ - بالفَتْحِ -: قريبُ المعنى مِنَ الهَدْيِ، وهُما مِنَ السَّكينةِ والوَقَارِ في الهَيْئَةِ، والمنظرِ، والشمائلِ، وغَيْرِ ذلك.

(٣) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣/ ١٢٨) عن أنسٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٤) رواه البخاريُّ (٢٥٨٢) عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه -.

(٥) رواه مسلم (٢٢٥٣) عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -.

(٦) مَشْبُوب: مُوْقَدٌ، وبابُ شَبَّ رَدَّ، وشُبُوبًا - أيضًا - بالضَّمِّ -.

حُسْنُ الاستِمَاعِ

إنَّ حُسْنَ الاستماعِ لِمَنْ يُحَدِّثُكَ بالأُذُنِ، والإقبالِ بالعَيْنِ، وحُضُورِ القَلْبِ، وإشراقةِ الوَجْهِ. يُقَرِّرُ لَكَ في نَفْسِهِ مِنَ المهابةِ والفَضْلِ فَوْقَ المنزلةِ الَّتي تَحُطُّ إليها نَفْسَكَ.

أَلِبَّاءُ[1] الرِّجالِ يَقْضُونَ هذا الحقَّ، تَجِدُ أَحَدَهُمْ يُصْغِي لِمُحدِّثِه إصغاءَ مَنْ لا يَعْرِفُ الحديثَ، ولَمْ يَمُرَّ عليه، ولم يَخْطُرْ على بالِهِ، وإنْ كان أَعْلَمَ بِهِ مِنْ قائلِهِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ:

«لجليسي عليَّ ثَلَاثٌ: أَنْ أَرْمِيَهُ بطَرْفي إذا أَقْبَلَ، وأنْ أُوَسِّعَ لَهُ في المَجْلِسِ إذا جَلَسَ، وأنْ أُصْغِيَ إليه إذا تحدَّثَ»[2].

إنْ أَنْتَ جالَسْتَ الرِّجالَ ذَوِي النُّهَى[3] فَاجْلِسْ إليهِمْ بالكمالِ مُؤَدَّبا
واسْمَعْ حَدِيثَهُمُ إذا هُمْ حَدَّثُوا واجْعَلْ حَدِيثَكَ -إنْ نَطَقْتَ- مُهَذَّبا[4]

وَمِن دُرَرِ ابنِ المُقَفَّعِ:

«تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ، كما تتعلَّمُ حُسْنَ الكَلامِ، وَمِنْ حُسْنِ الاستماعِ: إمهالُ المُتكلِّمِ حتَّى يَنْقَضِيَ حديثُهُ، وقِلَّةُ التَّلَفُّتِ إلى الجوابِ، والإقْبَالُ بالوَجْهِ والنَّظَرِ إلى المُتكلِّمِ، والوَعْيُ لما يَقُولُ»[5].

---

(١) أَلبَّاء: جَمْعُ لَبِيب، وهو العاقلُ الحازمُ.

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٦).

(٣) النُّهَى: جَمْعُ نُهْيَة ـ بالضَّمِّ ـ، وهي العَقْلُ، سُمِّيَ العَقْلُ نُهْيَةً؛ لأَنَّهُ يَنْهى صاحبَهُ عَنْ مُقَارَفَةِ كُلِّ قَبِيحٍ.

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٧).

(٥) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٩ ـ ١٣٠).

وقال: «وإذا رَأَيْتَ رَجُلًا يُحَدِّثُ حَدِيثًا قَدْ عَلِمْتَهُ، أَوْ يُخْبِرُ خَبَرًا سَمِعْتَهُ ـ فلا تُشَارِكْهُ فِيهِ، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليه؛ حِرْصًا على أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَهُ؛ فإنَّ في ذلك خِفَّةً وسوءَ أَدَبٍ وسُخْفًا»[1].

وقال ابنُ عَبد البر ـ رحمه الله ـ:

«مِنْ سُوءِ الأَدَبِ في المُجالسةِ: أَنْ تَقْطَعَ على جَليسِكَ حَديثَهُ، أو أن تَبْدُرَهُ[2] إلى تَمَامِ ما ابْتَدَأَ بِهِ مِنْهُ، خَبَرًا كانَ أو شِعْرًا، تُتِمُّ لَهُ البَيْتَ الَّذي بَدَأَ بِهِ؛ تُرِيهِ أَنَّكَ أَحْفَظُ لَهُ مِنْهُ، فهذا غايةٌ في سُوءِ المُجالسةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تُصْغِيَ إليهِ كأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْهُ ـ قَطُّ ـ إلَّا مِنْهُ»[3].

وَمِنْ أَدَبِ الاستماعِ ـ أيضًا ـ التَّعزيزُ والتَّشجيعُ، وهُوَ الثَّناءُ على المُتكلِّم، وإبداءُ الإعجابِ والاستحسانِ، فإنْ وُجِدَ ما يَجِبُ التَّنبيهُ إليه، فبأسلوبِ (أَحْسَنْتَ ولكنْ)، ولا سيَّما مَعَ الصِّغارِ أَوِ المُبتدئينَ في شِعْرٍ، أَوْ خَطَابةٍ، أو مقالةٍ، أَوْ نَحْوِهِ.

قال أستاذنا العماد:

إنْ لَمْ يَبِنْ لي مِنْكَ فَضْلُكْ ... أَوْ لَمْ يَمُرَّ عَلَيَّ أَصْلُكْ
فَلَقَدْ عَرَفْتُكَ يا فَتَى ... حُسْنُ استماعِكَ لي يُجِلُّكْ[4]

وقال ـ أيضًا ـ:[5]

حُسْنُ استماعِكَ وانْتِبَا ... هِكَ زاد في قَلْبي مَهَابَهْ
ولَقَدْ حَفِظْتُ مَقالتي ... لكنْ رَجَعْتُ إلى الكِتَابَهْ
خَوْفًا مِنَ الزَّلَلِ المُشِيـ ... ـنِ أَمامَ أصحابِ النَّجابَهْ

---

(١) المرجع السابق (ص١٣٦).
(٢) تَبْدُره: تعاجله، وبابُهُ دَخَلَ.
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٣٦).
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.
(٥) المرجع السابق.

سِحْرٌ:

قال أَبو تمّامٍ الطّائيُّ – رحمه الله –:

مَنْ لي بإنسانٍ إذا أَغْضَبْتُهُ ... وجَهِلْتُ، كان الحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

جَلَسْتُ إلى المُدَامِ[1] شَرِبْتُ مِنْ ... أَخْلاَقِهِ، وسَكِرْتُ مِنْ آدابِهِ

وتَرَاهُ يُصْغِي للحَدِيثِ بسَمْعِهِ ... وبقَلْبِهِ، ولَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ؟!

«طرائق الحكمة» (١/ ٧٣).

(١) المُدام -بزِنَةِ الغُرَابِ-: الخَمْر.

obeikandl.com

جُنَّة[1]

إنَّ مَنْ أُعطِيَ الرِّفْقَ، فقَدْ
أُعطِيَ الخَيْرَ كُلَّهُ، والرَّاحةَ بتمامِها،
وحَسُنَ حالُهُ في دُنْياهُ وآخِرَتِه،
وَمَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ، كان سبيلًا إلى كُلِّ بليَّةٍ وشَرٍّ.
الرِّفْقُ هُوَ الدَّفْعُ بالَّتي هي أَحْسَنُ.

قال الله -سُبحانَهُ وتعالى-: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤).

قال ابنُ سَعديٍّ -رحمه الله- في قولِه -تعالى-: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾:

«أَيْ: فإذا أَسَاءَ إليك مُسيءٌ مِنَ الخَلْقِ، خُصُوصًا مَنْ لَهُ حَقٌّ كبيرٌ عليك: كالأقاربِ، والأصحابِ، ونَحْوِهِمْ، إساءةً بالقَوْلِ أَوْ بالفِعْلِ - فقابِلْهُ بالإحسانِ إليه، فإنْ قَطَعَكَ فَصِلْهُ، وإنْ ظَلَمَكَ فاعْفُ عَنْهُ، وعامِلْهُ بالقَوْلِ اللَّيِّنِ، وإنْ هَجَرَكَ وتَرَكَ خِطَابَكَ، فطيِّبْ لَهُ الكلامَ، وابْذُلْ لَهُ السَّلامَ، فإذا قابلتَ الإساءةَ بالإحسانِ، حصل فائدةٌ عظيمةٌ»[2].

والرِّفْقُ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ، حتَّى مَعَ أَكْفَرِ خَلْقِ اللهِ: كفِرْعَونَ، أَلَا تَسْمَعُ إلى قَوْلِ اللهِ -سُبْحانَهُ وتعالى- مُخاطِبًا نبيَّه موسى -عليه السلام-:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ (طه: ٤٤).

قال ابنُ سَعديٍّ -رحمه الله-:

«أَيْ: سَهْلًا لَطِيفًا، برِفْقٍ ولِينٍ وأَدَبٍ في اللَّفْظِ، مِنْ دُونِ مُخْشٍ ولا صَلَفٍ ولا غِلْظَةٍ

(١) الجُنَّة -بالضَّمِّ-: كُلُّ ما وَقَى، والجَمْعُ جُنَنٌ. والمُرادُ بها هُنا: ما وَقَى مِنْ طَيْشِ الطَّائشينَ، وجَهْلِ الجاهلينَ.

(٢) «تفسير السَّعْديِّ» (ص٧٤٩).

في المقالِ، أَوْ فَظَاظةٍ في الأَفْعالِ»[١].

وعِنْدَما قالتْ عائشةُ – رضي الله عنها – **لليَهُودِ:** «بَلْ عليكمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ». قال لها الرَّسُولُ – ﷺ –: «**يا عائشةُ، إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِوَاهُ**»[٢].

ومَتَى رَفَقْتَ بالنَّاسِ في أَقْوالِكَ وأفعالِكَ، أَحَبَّكَ النَّاسُ، وأَقْبَلُوا عَلَيْكَ بقُلُوبِهِمْ؛ لأنَّ اللهَ يُعْطِي على الرِّفْقِ مِنَ البَرَكةِ ما لا يُعْطِي على غَيْرِهِ كما جاء في الحديثِ، والمَحْرُومُ مِنَ الخَيْرِ مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ.

فعن جابرٍ – رضي الله عنه – **قال:** قال رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الخَيْرَ**»[٣].

لَمْ أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ لِلْعَذْراءِ مِنْ خِدْرِها

مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِها[٤]

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قال رَسُولُ الله – ﷺ –:

«**إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ في شَيْءٍ إلَّا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلَّا شَانَهُ**».

(رواه مسلم (٢٥٩٤) عَنْ عائشةَ – رضي الله عنها –).

(١) المرجع السابق (ص٥٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) «حياة الحيوان» (١/ ٢٧٥).

خَفْضُ الجَنَاحِ

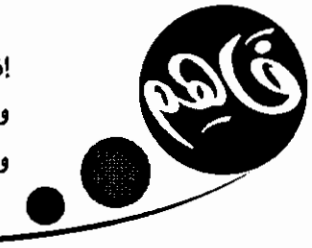

إنَّ خَفْضَ الجَنَاحِ يُكْسِبُ السَّلامَةَ والرَّاحةَ، ويُثْمِرُ الأُلْفَةَ والمحبَّةَ، ويَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا.

قال الله -سبحانه وتعالى-:

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

قال ابنُ سَعديٌ -رحمه الله-: «بلين جانبكَ، ولُطْفِ خِطَابِكَ، وتَوَدُّدِكَ وتَحَبُّبِكَ إليهم، وحُسْنِ خُلُقِكَ، والإحسانِ التَّامِّ بِهِمْ»[١].

وقال الله -سبحانه وتعالى-:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

قال ابنُ سَعديٌ -رحمه الله-: «ذَكَرَ أنَّ صِفَاتَهُمْ أَكْمَلُ الصِّفاتِ، ونُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بأَنَّهُمْ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا، أي: ساكنين مُتواضعين للهِ وللخَلْقِ، فهذا وَصْفٌ لَهُمْ بالوَقَارِ والسَّكينةِ، والتَّواضُعِ للهِ ولعبادِهِ»[٢].

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قال رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إنَّ اللهَ أَوْحَى إليَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا، حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يَبْغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ**» (رواه مسلم) (٢٨٦٥) عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ -رضي الله عنه-.

---

(١) «تفسير ابْنُ سَعْديٌّ» (ص٥٩٩).

(٢) المرجع السابق (ص٥٨٦).

obeikandl.com

أسس العافية

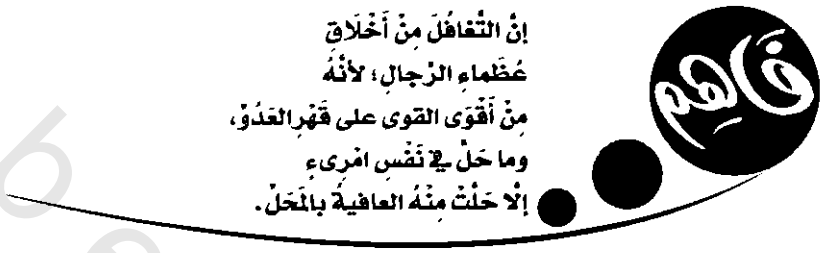

مَنْزِلَةُ التَّغافُلِ في حياةِ المُسْلِمِ بأَعْظَمِ المَنازِلِ؛ لأنَّ أَكْثَرَ أُمُورِ الحياةِ لا تستقيمُ إلَّا بالتَّغافُلِ.

رَوَى البيهقيُّ عَنْ عُثْمانَ بنِ زائدةَ قال: «العافيةُ عَشَرةُ أَجْزاءٍ، تِسْعَةٌ في التَّغافُلِ».

فحدَّثْتُ به أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فقال: «العافيةُ[1] عَشَرَةُ أَجْزاءٍ، كُلُّها في التَّغافُلِ»[2].

النَّبيُّ – ﷺ – يتغافَلُ عَنْ بَعْضِ الأمورِ:

قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ (التحريم: ٣).

فالنَّبيُّ – ﷺ – حَدَّثَ بَعْضَ أزواجه بحديثٍ، وأَوْصَاها أَلَّا تُخْبِرَ به أَحَدًا، فَذَهَبَتْ وأَخْبَرَتْ بِهِ، فأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ – ﷺ – على الَّذي كان مِنْ أَمْرِها، فلمَّا جاء العِتَابُ، ما عاتبها على الصَّغيرةِ والكبيرةِ، بَلْ بيَّن ما يستحقُّ البَيَانُ، وتغافَلَ عَنْ بَعْضِ الأُمُورِ، كما قال اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾.

أخي، أَلَا يَسَعُكَ ما وَسِعَ نبيَّكَ – ﷺ – مِنَ التَّغافُلِ؟

---

(١) العافيةُ أَيْنما حَلَّتْ، حلَّتْ معها السَّلامةُ، والسَّلامةُ مِنْ أَذَى النَّاسِ تَنْحَصِرُ أسبابُها في إظهارِ التَّغافُلِ عَنْ شُرُورِهِمْ وأَذَاهُمْ، يُرِيهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَتفطَّنْ لها، ولا يَكُونُ التَّغافُلُ إلَّا عَنْ فِطْنةٍ.

(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/ ١٠٤).

قال ابنُ الورديّ – رحمه الله –:

وتَـغَـافَـل عَـنْ أُمُـور؛ إنَّـهُ ... لَمْ يَـفُـزْ بـالحَـمْـدِ إلَّا مَـنْ غَـفَـلْ

وإنْ أَرَدْتَ الشَّرَفَ، فإنَّ التَّغافُلَ مِنْ مصايدِهِ.

قال الطّائيُ:

لَـيْـسَ الـغَـبِـيُّ بَـسَّـيـدٍ فِي قَـوْمِـهِ ... لَـكِـنَّ سَـيِّـدَ قَـوْمِـهِ المُـتَـغـابي[1]

ولله دَرُ أبي العتاهية حينَ قال:

فالْبسَ النَّاسَ ما اسْتَطَعْتَ مِنَ النَّقْـ ... ـصِ، وإلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ لَـك خِـلَّـهْ[2]

عِشْ وَحِيدًا إنْ كُنْتَ لا تَقْبَلُ العُذْ ... رَ، وإنْ كُـنْـتَ لا تُجـاوِزُ زَلَّـهْ[3]

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

وإنِّي أَغُـضُ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّـةِ الفَتَى ... كـأنِّي لَمْ أَسْـمَـعْـهُ أَوْ لَمْ أُشـاهِـدِ

سُمُوًّا بنَفْسي أَنْ تُجـاري ذَوِيَ الخَنَا ... وتَنْزِيهَ قدري عَنْ تقصِّي الـمصايدِ

ولَـوْ شِئْتُ لاستأصلتُهُ مِنْ جُـذُورِهِ ... ولكن حِلْمي فَـوْقَ كيدِ الـمكايدِ[4]

رَيَاحِينُ:

قال شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ – رحمه الله –: «العاقلُ هُوَ الفَطِنُ المُتَغافِلُ».

(أدب الدُّنيا والدِّين) (ص١٨٠).

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٢) الخِلَّة ـ بالكَسْر ـ: المُصادقة والإخاء.

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

obeikandl.com

مُؤانَسة

إنَّ التَّحبُّبَ إلى النَّاسِ بشَيْءٍ مِنَ المُزاحِ المَشْروعِ لمُؤانَستِهِمْ وإدخالِ البَهْجةِ والسُّرورِ عليهِمْ سُنَّةٌ مَشْروعةٌ.

المُزاحُ هُوَ الطَّريقُ السَّهْلُ إلى القُلوبِ، وقَدْ كان الرَّسُولُ -ﷺ- يُداعِبُ أَصْحابَهُ، ويُمازِحُهُمْ، فَيُدْخِلُ السُّرورَ والبَهْجَةَ إلى قُلوبِهِمْ، ويَطْرُدُ السَّآمةَ والمَلَلَ مِنْ نُفُوسِهِمْ، ويتحبَّبُ إليهِمْ بما يُؤانِسُهُمْ بِهِ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّكَ تُداعِبُنَا؟!. قال: **«إنِّي لا أَقُولُ إلاَّ حَقًّا»**[1]. وفي رواية: **«إنِّي لأُداعِبُكُمْ»**[2].

وما أَجْمَلَ أنْ يَكُونَ المُزاحُ في مَوْضِعِهِ، مُتواخَيًا به فُرْصَتُهُ، فإنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كذلك، فَتَرْكُهُ أَمْحَضُ في التكرُّمِ.

وَمِنَ العُلماءِ مَنْ كَرِهَ المُزاحَ.

قال ابنُ عَبدِ البر -رحمه الله-: «وَقَدْ كره جَماعةٌ مِنَ العُلَماءِ الخَوْضَ في المُزاحِ؛ لما فيهِ مِنْ ذَميمِ العاقبةِ، ومِنَ التَّوصُّلِ إلى الأعراضِ، واسْتِجْلابِ الضَّغائِنِ، وإفسادِ الإخاءِ»[3].

---

(١) حَقًّا: صِدْقًا.

(٢) (صحيح) رواهُ التِّرْمِذيُّ (١٩٩٠)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وأحمدُ في «المُسند» (٢/ ٣٤٠، ٣٦٠)، والبَغَويُّ في «شرح السُّنَّة» (٢٦٠٢) وحسَّنه. ولَهُ شاهدٌ بلَفْظ: «إنِّي لأَمْزَحُ، ولا أَقُولُ إلَّا حقًّا» مِنْ حديثِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- عِنْدَ الطَّبرانيِّ في «الكبير»، ومِنْ حديثِ أَنَسٍ -رضي الله عنه- عِنْدَ الخطيبِ وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٤٩٤) و(٢٥٠٩)، وفي «الصَّحيحة» (١٧٢٦).

(٣) «بهجة المجالس» (٢/ ٥٦٩).

والجَمْعُ بَيْنَ ذلك كما قال الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ -رحمه الله-: «والجَمْعُ بَيْنَهما: أنَّ المَنْهيَّ عَنْهُ ما فيه إفراطٌ، أَوْ مُداومةٌ عليه؛ لما فيه مِنَ الشغلِ عَنْ ذِكْرِ الله، والتَّفكُّرِ في مهمَّاتِ الدِّينِ، ويَئُولُ - كثيرًا - إلى قَسْوةِ القَلْبِ، والإيذاءِ والحِقْدِ، وسُقُوطِ المهابةِ والوَقَارِ.

والَّذي يَسْلَمُ مِنْ ذلك هُوَ المُبَاحُ، فإنْ صادَفَ مَصْلَحةً - مثل تَطْيِيبِ نَفْسِ المُخاطَبِ ومُؤَانَسَتِهِ - فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ»[1].

فَعَلَيْكَ - أخي - أنْ تتوخَّى[2] طِبَاعَ النَّاسِ؛ وذلك لأنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَجُرُّهُ مَزْحُكَ مَعَهُ إلى إيذائِك، فلا يَحْسُنُ أنْ تُمازِحَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ جِنْسِكَ، ولا رَجُلًا لا يَعْرِفُكَ فَيُنْزِلَكَ مَنْزِلَتَكَ، ولا طِفْلًا لا يَهَابُكَ، ولا عَدُوًّا؛ لما يَقُودُ إلى مفسدةٍ تُؤْذِيكَ، ولا يَحْسُنُ المُزاحُ بحَضْرةِ العامَّة؛ فرُبَّما كان فيهمْ رَجُلٌ وَضِيعٌ لا يَعْرِفُ قَدْرَكَ، فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ.

قال ابنُ حبَّانَ -رحمه الله-: «مَنْ مازح رَجُلًا مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ، هان عليه، واجْتَرَأَ عَلَيْه، وإنْ كان المُزاحُ حقًّا؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ لا يَجِبُ أَنْ يُسْلَكَ بِهِ غَيْرُ مَسْلَكِه، ولا يُظْهَرَ إلَّا عِنْدَ أَهْلِه، على أنِّي أكرَهُ استعمالَ المُزاحِ بحَضْرةِ العامَّةِ، كما أكرهُ تَرْكَهُ عِنْدَ حُضُورِ الأَشْكَالِ[3]»[4].

واعْلَمْ أنَّ المُزَاحَ كالمِلْحِ في الطَّعامِ؛ فاجْعَلْ لَهُ قدرًا، وما زاد عَنْ حَدِّهِ انْقَلَبَ إلى ضِدِّه.

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ١٥٨).

(٢) تَتَوخَّى: تراعي.

(٣) الأشكال: جَمْعُ شِكْلٍ - بالفَتْحِ والكَسْرِ -، وهُوَ المِثْلُ، ويُجْمَعُ - أيضًا - على شُكُولٍ.

(٤) «روضة العقلاء» (ص٨١).

كما قال البُستيُّ:

أَفِد طَبْعَكَ المَكْدُودَ[١] بالجِدِّ راحةً ... يَجُمَّ[٢]، وعَلِّلْهُ بشَيْءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكنْ إذا أَعْطَيْتَهُ المَزْحَ، فَلْيَكُنْ ... بمِقْدَارِ ما تُعْطِي الطَّعامَ مِنَ المِلْحِ[٣]

عَسْجَدٌ:

قِيلَ لسُفيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ ـ رحمه الله ـ: «المُزَاحُ هُجْنةٌ[٤]؟».

قال: «بَلْ سُنَّةٌ، لَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَنْ يَحْسِنُهُ، ويَضَعُهُ مَوْضِعَهُ»

«شرح السُّنَّة» (١٣/ ١٨٤).

(١) المكدود: المُتعب المُرهق مِنْ شدَّةِ العَمَلِ.
(٢) يجم: يَذْهَبُ إعياؤُهُ.
(٣) «أدب الدنيا والدين».
(٤) الهُجْنة ـ بالضَّمِّ ـ مِنَ الكلامِ: ما يَعِيبُهُ.

obeikandl.com

سِيَاسَةٌ

إنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ لُمحترفي السيرك، كَيْفَ نَجَحُوا في تَرْويضِ الحيواناتِ الضَّخْمةِ والشَّرِسَةِ، ودرَّبوها على أعمالٍ تَدْعُو للدَّهْشَةِ والاستغرابِ؟!؛ وطَرِيقَتُهُمْ في ذلك السِّياسةُ[1]، ولا شَكَّ أَنَّ الإنسانَ مِنْ أكْثَرِ مَخْلُوقاتِ اللهِ ذَكَاءً، وأَحْوَجِهَا إلى السِّياسةِ، وسياستُهُ لَيْسَتْ كسياسةِ الحيواناتِ، بَلْ كما قال الشَّافعيُّ – رحمه الله –:

«سياسةُ النَّاسِ أَشَدُّ مِنْ سِيَاسَةِ الدَّوَابِّ».

النَّبيُ – ﷺ – يَسْتَعْمِلُ السِّياسةَ:

فَعَنْ عائشةَ – رضي الله عنها –: «أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ على النَّبيِّ – ﷺ –، فقال:

«ائْذَنُوا لَهُ، فَلَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرةِ! -أَوْ: بِئْسَ رَجُلُ العَشِيرةِ!- ».

فلمَّا دَخَلَ عليه، أَلَانَ لَهُ القَوْلَ، قالتْ عائشةُ: فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ لَهُ الَّذي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ القَوْلَ؟!.

قال: «يا عائشةُ، إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامةِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ -أَوْ: تَرَكَهُ النَّاسُ- اتِّقاءَ فُحْشِهِ»[2].

---

(١) مِنْ سِيَاسَتِهِمْ أَنَّهم يَطْلُبون مِنْ هذا الحيوان عَمَلًا مُعيَّنًا، فإذا حقَّق فيه نَجَاحًا ٥٪ أَعْطَوْهُ قِطْعَةَ لَحْم، وشَدُّوا مِنْ أَزْرِه، دلالةً على رِضَاهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ يُكَرِّرونَ هذا الأَمْرَ، فيزدادُ النَّجاحُ شيئًا فشيئًا، حتَّى يتوصَّلوا إلى مَقْصُودِهِمْ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

وَعَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ - رضي الله عنه - أنه قال: قَدِمَتْ على النَّبيِّ - ﷺ - أَقْبِيَةٌ[١]، فقال لي أبي مَخْرَمَةُ: انْطَلِقْ بنا إليه؛ عَسَى أَنْ يُعْطِيَنَا مِنْها شَيْئًا. قال: فقام أبي عَلَى البَاب، فتكلَّم، فَعَرفَ النَّبيُّ - ﷺ - صَوْتَهُ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَبَاءٌ، وَهُوَ يُرِيهِ مَحَاسِنَهُ، وهُوَ يَقُولُ: «خَبَّأْتُ هذا لَكَ، خَبَّأْتُ هذا لَكَ»[٢].

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «وكان في خُلُقِهِ شَيْءٌ»[٣].

قال ابنُ حَجَرٍ - رحمه الله -:

«قال ابْنُ بَطَّالٍ: المُداراةُ مِنْ أَخْلاقِ المُؤْمنين، وهي: خَفْضُ الجَنَاحِ لِلنَّاسِ، وَلِينُ الكلمةِ، وتَرْكُ الإغلاظِ لَهُمْ في القَوْلِ، وذلك مِنْ أَقوَى أسبابِ الأُلْفَةِ»[٤].

وقال بَعْضُهُمْ: «يَنْبَغي للعاقِلِ أَنْ يُداري زمانَهُ مُداراةَ السَّابحِ في الماءِ الجاري»[٥].

وقال الشافعيُّ - رحمه الله -:

إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... لأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحيَّاتِ
وأُظْهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبْغِضُهُ ... كأَنَّهُ قَدْ حَشَا قَلْبي مَحَبَّاتِ[٦]

وقال آخَرُ:

ما دُمْتَ حيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فإنَّما أَنْتَ في دارِ المُدَاراتِ
مَنْ يَدْرِ داري، وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى ... عَمًّا قليلٍ نَدِيمًا لِلنَّدامَاتِ[٧]

---

(١) الأقبية: جَمْعَ قَبَاءٍ - بالفتح ممدودًا -، وهُوَ يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيابِ.
(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٩٩)، ومسلم (١٠٥٨)، واللَّفْظُ لَهُ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦١٣٢) مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ.
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).
(٥) «عين الأدب والسياسة» لعليِّ بْنِ هذيل (ص١٥٤).
(٦) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٢٨) جَمْعُ الزعبيِّ.
(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٤١).

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

ما بَخِلْتُ على السَّفيهِ ولَمْ أَهَبْهُ ... ودارَيْتُ السَّفيهَ بنِصْفِ مالي
لعِلْمي في الكَريمِ بُلُوغَ عُذْري ... ولا يَرْثي السَّفيهُ لسُوءِ حالي

ماسُ:

قال العتابيُ -رحمه الله-:

«المُداراةُ سياسةٌ لَطِيفةٌ، لا يَسْتَغْنى عنها مَلِكٌ ولا سُوقةٌ[1]، يَجْتَلِبُونَ بها المَنافعَ، ويَدْفَعُون بها المَضَارَّ، فَمَنْ كَثُرَتْ مُداراتُهُ، كان في ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامةِ». «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٥٤).

(١) السُّوقة ـ بالضَّمِّ ـ : الرَّعيَّة، للواحِدِ والجَمْعِ، والمُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، أَوْ قَدْ يُجْمَعُ على سُوَقٍ ـ بزِنَةِ غُرَفٍ.

بَلْسَم

إنْ تَطْيِيبَ خَواطِرِ النَّاسِ بالكلماتِ الطَّيِّبةِ، والثَّناءِ العاطِرِ، أوْ شَيْءٍ مِنَ المَتاعِ - بَلْسَمٌ لكُلومِهِمْ، وسَبِيلٌ لاستبقاءِ مَوَدَّتِهِمْ.

الكتابُ والسُّنَّةُ الصَّحيحةُ حافِلانِ بذِكْرِ ما يَجْبُرُ خَواطِرَ النَّاسِ ويُطَيِّبُها:

كقَوْلِهِ -تعالى-: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (النساء: ٨).

فهؤلاءِ الأَقارِبُ والفُقَراءُ والمَساكينُ الَّذين لا حَظَّ لَهُمْ في الميراثِ، ولا مالَ لَهُمْ طيَّب اللهُ خاطِرَهُمْ بجُزْءٍ مِنَ مالِ التَّرِكَةِ، تُعْطِيهِمْ إيَّاهُ، يُبارِكُ اللهُ لَكَ، ويُعَوِّضُكَ خَيْرًا[1].

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سبأ: ٣٩).

وكقَوْلِهِ -تعالى-: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤١).

فخاطِرُ المُطَلَّقةِ مكسورٌ؛ لكونِها طُلِّقَتْ، فَعُوِّضَ هذا الكَسْرُ بشيءٍ مِنَ المَالِ تخفيفًا مِنْ أحْزانِها[2].

وإذا أَرَدْتَ أَنْ تَمْنَعَ أَحَدًا شَيْئًا، فَكَلِّلْ ذلك بالكلماتِ الطَّيِّبةِ.

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٨)[3].

---

(١) وَمِنْ تَطْيِيبِ الخَواطِرِ: أَنَّهُ إذا كان لك مالٌ تُفَرِّقُهُ بَيْنَ أَوْلادِكَ، وحَضَرَ أَوْلَادُ الجيرانِ، أو الأَيتامُ - فَأَعْطِهِمْ مِنْ ذلك المالِ ما تُطَيِّبُ خواطِرَهُمْ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ.

(٢) انظر: «فقه الأخلاق» (١/ ١٢٨).

(٣) انظر «فقه الأخلاق» (١/ ١٢٩).

وأمَّا السُّنَّةُ الصَّحيحةُ فحافلةٌ بذِكْرِ جَبْرِ الخواطرِ وتَطْيِيبِها، وذِكْرُ ذلك بحاجةٍ إلى سِفْرٍ[1] بَلْ أَسْفَارٍ، ولكنْ يَكْفي مِنَ القِلَادَةِ ما أحاط بالعُنُقِ.

فَعَنِ البَرَاءِ - رضي الله عنه - قال: «لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبيُّ - ﷺ - في ذي القَعْدَةِ....» فذكَرَ الحديثَ، وَفِيهِ: (فَخَرَجَ النَّبيُّ - ﷺ -، فَتبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادي: يا عَمِّ يا عَمِّ، فتناوَلَها عليٌّ، فأَخَذَ بيدِها، وقال لفاطمةَ: دُوْنَكِ[2] ابْنَةَ عَمِّكِ حَمِّلِيها، فاخْتَصَمَ فيها عليٌّ وزَيْدٌ وجَعْفَرٌ:

قال عليٌّ: أَنَا أَخَذْتُها، وهي بِنْتُ عميِّ.

وقال جَعْفَرُ: ابْنَةُ عميِّ، وخالَتُها تَحْتي.

وقال زَيْدُ: ابْنَةُ أخِي.

فَقَضَى بها النَّبيُّ - ﷺ - لخالَتِها، وقال: «الخالةُ بمَنْزِلَةِ الأُمِّ»

وقال لعليٍّ: «أَنْتَ منِّي، وأنا مِنْكَ».

وقال لجَعْفَرٍ: «أَشْبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي».

وقال لزَيْدٍ: «أَنْتَ أَخونا ومَوْلَانا»)[3].

فانظرْ كَيْفَ طيَّب - ﷺ - خاطِرَ كُلِّ واحدٍ منهم بما قاله لَهُ؟![4].

ياقُوتة:

قال الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ - رحمه الله -:

«لَوْ جَلَسْتُ إلى مِائَةٍ، لأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْتَمِسَ رِضَا كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ».

«بهجة المجالس» لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٤٥).

---

(١) السِّفْر - بالكَسْرِ -: الكتاب الكبير، والجَمْعُ أَسْفارٌ.

(٢) دُونَكِ: اسم فعل أمر بمعنى: خُذي.

(٣) رواه البخاريُّ (٤٢٥١).

(٤) انظر «فقه الأخلاق» (١/ ١٣٠).

تَعَاهَدْ ما زَرَعْتَ

إنَّ المَوَدَّةَ لَنْ تَبْلُغَ أَنْ تَكُونَ مودَّةً بالغةً ما لَمْ تتعاهَدْها، كما لا يَحْسُنُ أنْ تَضَعَ البَذْرَ في الأَرْضِ، ثُمَّ تَتولَّى عَنْهُ.

ما أُتِيَ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ إلَّا مِنْ قِبَلِ عَدَمِ تعاهدُ الوُدِّ، ومَتَى اقْتَصَرَ الوُدُّ على حَلَاوةِ مَنْطِقٍ، كان تعارُفًا، لا خُلَّةً[1] خالصةً.

قال صالحُ بْنُ عَبْدِ القُدُّوسِ:

إذا كـان وُدُّ المَـرْءِ لَـيْـسَ بـزائِـدٍ ... على «مَرْحبًا» أو «كَيْفَ أَنْتَ وحَالَكَا؟»
أو القَوْلِ: «إنِّي وَامِـقٌ[2] لَكَ حَافِظٌ» ... وأَفْـعَـالُـهُ تُـبْـدِي لنا غَـيْرَ ذَلِـكا
ولَمْ يَـكُ إلَّا كـاشِرًا أَوْ مُحَدِّثًـا ... فَـأُفٌّ لِـوُدٍّ لـيس إلا كـذلِـكا
ولـكِـنْ إخـاءُ المَـرْءِ مَـنْ كـان دائـمًا ... لِذِي الـوُدِّ مِنْهُ حَيْثُمَا كان سَالِكَا[3]

وإنَّما يُؤَاخي مَنْ كان صافيَ الوُدِّ، فَمِثْلُهُ حَقِيقٌ بكُلِّ خَيْرٍ.

---

(١) **الخُلَّة** ـ بالضَّمِّ ـ: الصَّداقة المُخْتصَّةُ لا خَلَلَ فيها، والجَمْعُ خِلالٌ، وإنَّما سُمِّيتِ الصَّدَاقةُ المُختصَّةُ خُلَّةً؛ لتَخَلُّلِ المحبَّةِ جَميعَ أَجْزاءِ الرُّوحِ، كما قال بشَّارٌ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الـرُّوحِ مِنِّي ... وَبِـهِ سُـمِّـي الخَـلِـيـلُ خَلِيلا

(٢) **وَمِقَهُ يَمِقُهُ** ـ بكَسْرِهما ـ **وَمْقًا وَمِقَةً**: أحبَّهُ، فَهُوَ وامِقٌ.

(٣) «رَوْضة العُقَلاءِ» (ص٧٤).

قال الشَّافعيُّ – رحمه الله –:

إذا المَـرْءُ لا يَـرْعَـاكَ إلَّا تَكَلُّفًا ... فَـدَعْـهُ، ولا تُكْثِرْ عَلَيْهِ التَّأَسُّفا
ففي النَّاسِ أَبْـدالٌ، وفي الـتَّرْكِ راحةٌ ... وفي القَلْبِ صَـبْرٌ للحبيبِ وَلَوْ جَفَا
فَـمَا كُـلُّ مَـنْ تَهْـوَاهُ يَهْـوَاكَ قَلْبُهُ ... ولا كُـلُّ مَـنْ صافَيْتَهُ لَكَ قَـدْ صَفَا
إذا لَمْ يَـكُـنْ صَـفْـوُ الـوِدَادِ طَبيعةً ... فـلا خَـيْرَ في وُدٍّ يَجِـيءُ تَكَلُّفا
ولا خَـيْرَ في خِـلٍّ يُخَـوِّنُ خَلِيلَهُ ... ويَـلْـقَـاهُ مِـنْ بَـعْـدِ المَـوَدَّةِ بالجَفَا
ويُـنْـكِـرُ عَيْشًا قَـدْ تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ ... ويُظْهِرُ سِرًّا كـان بالأَمْسِ قَـدْ خَفَا
سَـلامٌ على الدُّنْيا إذا لَمْ يَـكُـنْ بها ... صَدِيقٌ صَـدُوقٌ صـادِقُ الوَعْدِ مُنْصِفَا

ولا يَكُونُ المَرْءُ حافِظَ الوُدِّ حَتَّى يؤتى إلى إخوانه الذي يحب أن يؤتى إليه[1]، ويُحِبَّ لَهُمْ ما يُحِبُّهُ لنَفْسِهِ[2].

وَمِنْ دُرَرِ الحِكَمِ: «أَخُوكَ هُوَ شَخْصُكَ الثَّاني».

ولله در السعدي الشيرازيِّ القائل:

قـال لِيَ المَـحْـبُـوبُ لَمَّـا زُرْتُـهُ: ... مَـنْ بـبـابي؟، قُـلْـتُ: بـالـبـابِ أَنَـا
قـال لِي: أَخْـطَـأْتَ تَعْرِيفَ الهَـوَى ... حِـيـنَـمـا فَـرَّقْـتَ فِـيـهِ بَـيْـنَـنَـا
وَمَـضَى عـامٌ، فَـلَـمَّا جِـئْـتُـهُ ... أَطْـرُقُ الـبَـابَ عَـلَـيْـهِ مُـوهِـنَـا
قال لِي: مَنْ أَنْـتَ؟، قُلْتُ: انْظُرْ فَما ... ثَـمَّ إلَّا أَنْـتَ بـالـبـابِ هُـنَـا
قـال لِي: أَحْـسَـنْـتَ تَعْرِيفَ الهَـوَى ... وَعَـرَفْـتَ الحُـبَّ، فـادْخُـلْ يـا أَنَـا

---

(١) روى مُسْلِمٌ (١٨٤٤) مِنْ حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قال: قال رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «وَلْيَأْتِ إلى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إليه».

(٢) رَوَى البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥) مِنْ حديثِ أَنَسٍ – رضي الله عنه – قال: قال رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنَفْسِهِ».

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

وافيتني فزرعتَ في ... قلبي زُهُورًا يانعَهْ
وهجرتني حتَّى ذوَتْ ... تِلْكَ الزُّهُورُ الرَّائِعَهْ
لَوْ لَمْ تُفارِقْها نَمَتْ ... وغَدَتْ حُقُولًا ماتِعَهْ[1]

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّة:

قال ابنُ حبَّانَ -رحمه الله-: «مَنْ أَضَاعَ تَعَهُّدَ الوُدِّ مِنْ إخوانِهِ، حُرِمَ ثَمَرةَ إخائِهِمْ، وآيَسَ الإخوانَ مِنْ نَفْسِهِ» «رَوْضَة العُقَلاء» (ص١٤٧).

(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

obeikandl.com

وَفَاء

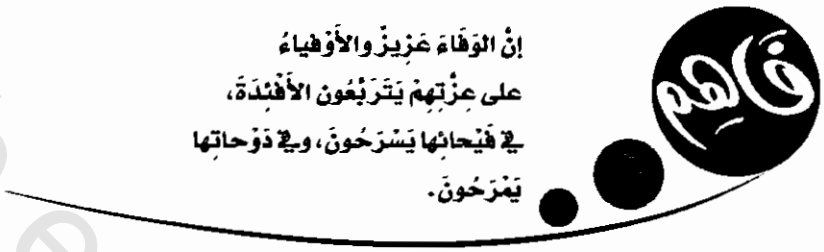

عَظَّمَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وتعالى ـ أَمْرَ الوَفَاءِ، فقال:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (البقرة: ٤٠).

ولقلَّةِ وُجُودِهِ في النَّاسِ، وعِزَّتِهِ بَيْنَهُمْ قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ (الأعراف: ١٠٢).

والعَرَبُ تَضْرِبُ به المَثَلَ في العِزَّةِ، فتقول للشَّيْءِ النَّفِيسِ الَّذي قَلَّ فلا يكادُ يُوجَدُ: «هُوَ أَعَزُّ مِنَ الوَفَاءِ»[١].

قال الشَّاعِرُ:

سَقَى اللهُ أَطْلالَ[٢] الوَفَاءِ بكَفِّهِ ... فَقَدْ دَرَسَتْ[٣] أَعْلَامُهُ ومَنَازِلُهْ

والوَفَاءُ أَنْوَاعٌ، منها:

الوَفَاءُ بالعَهْدِ، الوَفَاءُ بالعَقْدِ، الوَفَاءُ بالوَعْدِ، الوَفَاءُ في حقِّ الأُخُوَّة ورعايةِ ذِمامِها[٤].

ولا سبيلَ إلى الحياةِ الطَّيِّبةِ إلَّا بأَنْ يَلْزَمَ العَبْدُ الوَفَاءَ في كُلِّ أَحْوالِهِ، فيُوفِي بحُقُوقِ

---

(١) انظر «الذَّريعة في مكارم الشَّريعة» (ص٢٩٣).

(٢) الأطلال: جَمْعُ طَلَل ـ بفتحتَيْن ـ، وهو ما شَخَصَ مِنْ آثارِ الدِّيارِ ـ ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على طُلُولٍ، وأطلال الوفاء على التَّشبيه.

(٣) دَرَسَتْ: عَفَتْ وذَهَبَتْ، وبابُهُ دَخَلَ.

(٤) الذِّمام ـ بالكَسْرِ ـ: الحُرْمة، والجَمْعُ أَذِمَّةٌ.

اللهِ ـ سبحانه وتعالى ـ كاملةً، وحُقُوقِ إخوانِهِ، وحُقُوقِ أَهْلِهِ ونَفْسِهِ، ويُعْطِيَ كُلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وهُنَاكَ مَواقِفُ عَزِيزَةٌ في الوَفَاءِ سجَّلها لنا التَّاريخُ بأَحْرُفٍ مِنْ نُورٍ، أَذْكُرُ منها:

وَفَاءَ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ مالكِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الرِّقَاعِ لعُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحمنِ ـ رحمهما الله ـ ، فَعِنْدَما عَزَلَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ عامِلَهُ على الأُرْدُنِّ عُبَيْدَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحمنِ، وضَرَبَهُ، وحَلَقَهُ، وأقامَهُ للنَّاسِ، وقال للمتوكِّلين بِهِ: مَنْ أَتَاهُ مُتَوجِّعًا، وأَثْنَى عليه، فَأْتُوني بِهِ، فَأَتَاهُ عَدِيُّ بْنُ الرِّقَاعِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ، وكان عُبَيْدَةُ إليهِ مُحْسِنًا، ومُقَرِّبًا لَهُ، ومُجْزِلًا لَهُ العَطَاءَ، فوقف عليه، وأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَمَا عَزَلُوكَ مَسْبُوقًا، ولكِنْ ... إلى الخَيْراتِ سَبَّاقًا جَوَادا
وكُنْتَ أَخِي وما وَلَدَتْكَ أُمِّي ... وَصُولًا بَاذِلًا لِي مُسْتَزادا
وَقَدْ هِيضَتْ[1] لنَكْبَتِكَ القُدامَى[2] ... كَذاكَ اللهُ يَفْعَلُ ما أَرَادَا

فَوَثَبَ المُتوكِّلون بعُبَيْدَةَ، وأَمْسَكُوا عَدِيًّا، وأَدْخَلُوهُ على الوَلِيدِ، وأَخْبَرُوهُ بما جَرَى، فتغيَّظَ عليه الوليدُ، وقال لَهُ: أَتَمْدَحُ رَجُلًا قَدْ فَعَلْتُ به ما فَعَلْتُ؟!.

فقال: يا أَميرَ المُؤْمنينَ، إنَّهُ كان إليَّ مُحْسِنًا، ولي مُؤْثِرًا، وبي بَرًّا، ففي أيِّ وَقْتٍ كُنْتُ أُكافِئُهُ بَعْدَ هذا اليَوْمِ؟!.

فقال: صَدَقْتَ وكَرُمْتَ، وقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وعَنْهُ لك، فَخُذْهُ وانْصَرِفْ. فانْصَرَفَ بِهِ إلى مَنْزِلِهِ[3].

---

(١) هاضَ الشَّيْءَ: كَسَرَهُ، وبابُهُ باع.

(٢) القُدَامى ـ بزِنَةِ الحُبَارَى ـ: أَرْبَعُ أَوْ عَشْرُ رِيشاتٍ في مُقَدَّمِ الجَنَاحِ، الواحدةُ قادمةٌ.

(٣) «الوفاء» لعَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ صالح آل عبد اللَّطيف (ص٧٦).

قال أستاذنا العماد -حفظه الله- :

كَـرِيـمٌ؛ فَـقَـدْ وافـيـتُـهُ ذاتَ مـرَّةٍ ... فَـلَـمْ يَـلْـقَ مـا يُـرْضـيـهِ إلَّا فُـؤَادَهُ

وَفِيٌّ، فَـلَـوْ مَـزَّقْـتَ أَشْـلاَءَ قَلْبِهِ ... لصاحَتْ جـميعًا: لَنْ تَخُـونَ ودادَهُ[1]

عُقُودٌ ذَهَبِيَّةٌ :

قال ابنُ حَزمٍ – رحمه الله – : «الوَفَاءُ مُرَكَّبٌ مِنَ العَدْلِ، والجُودِ، والنَّجْدةِ».

«الأخلاق والسِّير» (ص١٤٥).

(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

قلوبٌ مؤتلفةٌ

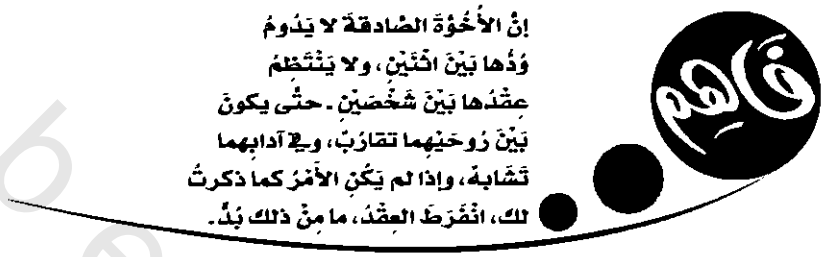

قالت عائشةَ - رضي الله عنها -: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: «الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ[١]، فما تعارف[٢] منها ائْتَلَفَ[٣]، وما تَناكَرَ[٤] منها اخْتَلَفَ[٥]»[٦].

يقولُ البَغَوِيُّ - رحمه الله -: «في الحديثِ بيانُ أَنَّ الأرواحَ خُلِقَتْ قَبْلَ الأَجْسَادِ، وأَنَّها مَخْلُوقةٌ على الائْتِلَافِ والاختلافِ كالجُنُودِ المُجَنَّدةِ، إذا تقابلتْ وتواجَهَتْ، وذلك على ما جَعَلَها اللهُ عليه مِنَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ، ثُمَّ الأجسادُ الَّتي فيها الأرواحُ تَلْتقي في الدُّنيا، فَتَأْتَلِفُ وتختلفُ على حَسَبِ ما جُعِلَتْ عليه مِنَ التشاكُلِ والتَّناكُرِ في بَدْءِ الخَلْقِ، فَتَرى البَرَّ الخَيِّرَ يُحِبُّ مِثْلَهُ، والفاجرَ يَأْلَفُ شَكْلَهُ، ويَنْفِرُ كُلٌّ مِنْ ضِدِّهِ»[٧].

---

(١) **جُنودٌ مجنَّدةٌ**: جُمُوعٌ مجتمعةٌ، وأنواعٌ مُختلفةٌ، والأرواحُ جَمْعُ رُوحٍ، وهو الَّذي يَقُومُ به الجَسَدُ، وتكونُ به الحياةُ.

(٢) **تعارف منها**: توافقتْ صفاتُها، وتناسبتْ في أخلاقِها.

(٣) **ائتلف**: مِنَ الأُلْفةِ، وهي المحبَّةُ والمودَّةُ.

(٤) **تناكر منها**: تنافرتْ في طبائعِها.

(٥) **اختلف**: تباعد.

(٦) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - (٣٣٣٦)، ورواه مسلمٌ (٢٦٣٨) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -.

(٧) «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٥٧).

قال الشاعرُ:

تعارَفُ أَرْوَاحُ الرِّجالِ إذا الْتَقَوْا ... فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يُتَّقَى وخَلِيلُ
كذاك أُمُورُ النَّاسِ، والنَّاسُ مِنْهُمُ ... خَفِيفٌ -إذا صاحَبْتَهُ- وثَقِيلُ [١]

وقال أحمد عبيد - رحمه الله -:

بحثتُ عن الأَدْيَانِ في كُلِّ أمةٍ ... وَطُفْتُ بلادَ اللهِ غَرْبًا وَمَشْرِقا
فلم أرَ كالإسلامِ أدْعَى لأُلْفَةٍ ... ولا مثلِ أهليهِ هوىً وتَفَرَّقا

وقال ابنُ القيمِ - رحمه الله -:

(وأَنْتَ إذا تَأَمَّلْتَ الوُجُودَ، لا تَكَادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ يتحابَّانِ إلَّا وبَيْنَهما مُشَاكلةٌ، أو اتِّفاقٌ في فِعْلٍ، أو حالٍ، أو مقصدٍ، فإنْ تباينتِ المقاصِدُ، والأَوْصَافُ، والأَفْعَالُ، والطَّرائقُ لَمْ يَكُنْ هناك إلَّا النفرةُ، والبُعْدُ بَيْنَ القُلُوبُ، ويَكْفي في هذا الحديثِ الصَّحيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ كمَثَلِ الجَسَدِ الواحدِ، إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى[٢]»)[٣].

وقال - رحمه الله -: «إذا كانتِ المحبَّةُ بالمُشاكلةِ والمُناسبةِ، ثَبَتَتْ وتمكَّنَتْ، ولم يُزِلْها إلَّا مانعٌ أَقْوَى مِنَ السَّبَبِ، وإذا لَمْ تَكُنْ بالمُشاكلةِ، فإنَّما هي محبَّةٌ لغرضٍ مِنَ الأغراضِ، تَزُولُ عِنْدَ انقضائِهِ وتَضْمَحِلُّ، فَمَنْ أحبَّكَ لأَمْرٍ ولَّى عِنْدَ انقضائِهِ، فداعي المحبَّةِ وباعِثُها إنْ كان غَرَضًا للمُحِبِّ، لم يَكُنْ لمحبَّتِهِ بقاءٌ»[٤].

---

(١) «ديوان طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ» (ص١٢١).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنه -.
(٣) «روضة المُحبِّين» (ص٥٤).
(٤) المرجع السابق (ص٥١).

قال الشاعرُ:

إنْ كُنْتَ حُلْتَ[١] وبي اسْتَبْدَلْتَ مُطَّرِحًا ... وُدًّا، فَلَمْ تَـأْتِ مَكْروهًا ولا بِدَعا[٢]

فكُلُّ طَـيْرٍ إلى الأَشْـكـالِ مَوْقِعُها ... والفَرْعُ يَجْرِي إلى الأَعْـراقِ مُنْتَزِعَا[٣]

وقال أستاذنا العماد- حفظه الله- :

وإنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ، أُحِبُّ ذوي التُّقَى ... كـذلك أَهْـلُ الـشَّرِّ يَـجْمَعُهُمْ إِلْفُ

تراهُمْ إلى بَعْضٍ يَـوَدُّون بَعْضَهُمْ ... ولا خَـيْرَ في قَـوْمٍ قُـلُـوبُهُـمُ غُلْفُ

إذا اشْـتَـدَّتِ الدُّنيا عليهِمْ رَأَيْتَهُمْ ... ومـا بَيْنَهُمْ وُدٌّ يُراعَى ولا عُـرفُ[٤]

عُقُودُ ماسٍ :

قال مالكُ بْنُ دينارٍ – رحمه الله – **لِختَنِه**[٥]: «يا مُغيرةُ، انْظُرْ كُلَّ أَخٍ لك، وَصَاحِبٍ لكَ، وصديقٍ لك لا تَسْتَفِيدُ في دِينِكَ مِنْهُ خَيْرًا، فانْبِذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ، فإنَّما ذلك لك عَدُوٌّ، يا مُغيرةُ، النَّاسُ أَشْكَالٌ: الحَمَامُ مَعَ الحَمَامِ، والغُرابُ مَعَ الغُرابِ، والصَّعْوُ مَعَ الصَّعْوِ[٦]، وكُلٌّ مَعَ شَكْلِهِ» .

«المنتقى من مكارم الأخلاقِ» (ص١٥٩).

---

(١) حلت: انْقَلَبْتَ عَنِ العَهْدِ.

(٢) يقولُ: أيُّها المُستبدِلُ بي غَيْري، لا عَيْبَ عليك؛ إنَّما أنت تبعُ مَنْ تُجالسُهُ.

(٣) «روضة العُقلاء» (ص١٨٢).

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

(٥) **الخَتَنُ** ـ بفتحتَيْن ـ : واحدُ الأَخْتَانِ، وهُوَ عِنْدَ العَرَبِ كُلُّ مَنْ كان مِنْ قِبَلِ المرأةِ، مثل: الأَبِ، والأَخِ، وعِنْدَ العامَّة زَوْجُ البِنْت.

(٦) **الصَّعْوُ** ـ بالفَتْحِ ـ : جَمْعُ صَعْوَةٍ، وهو طائرٌ أَصْغَرُ مِنَ العُصْفُورِ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على صِعَاءٍ.

مَصْنَعُ الحُبِّ

إنَّ الكَرَمَ يَجْتَذِبُ القُلُوبَ،
ويَصْنَعُ الحُبَّ، ويُثْمِرُ المَوَدَّةَ،
ويَسُلُّ السُّخيمةَ، ويَذْهَبُ
بالضَّغِينةِ.

يَكْفي الكَرَمَ شرفًا وفَضْلًا أنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ سُبْحانَهُ وتعالى ـ: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل: ٤٠).

وهُوَ ـ أيضًا ـ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الأنبياءِ ـ عليهمُ السَّلامُ ـ.

يقولُ جابرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ـ رضي الله عنهما ـ: «ما سُئِلَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ عَنْ شَيْءٍ ـ قَطُّ ـ فقال: لا»[١].

ما قال لا إلَّا في تَشَهُّدِهِ ... لَوْلَا التَّشَهُّدُ كانتْ لاؤُهُ نَعَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ راحَتِهِ ... رُكْنُ الحطيمِ[٢] إذا ما جاء يَسْتَلِمُ

وَقَدْ كان جَودُهُ وكَرَمُهُ ـ ﷺ ـ سَبَبًا في دُخُولِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ في دِينِ اللهِ أَفْواجًا.

يقولُ أَنَسٌ ـ رضي الله عنه ـ:

«ما سُئِلَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ على الإسلامِ شَيْئًا إلَّا أَعْطَاهُ، فجاءَهُ رَجُلٌ، فأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ[٣]، فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ، فقال: يا قَوْمِ، أَسْلِمُوا؛ فإنَّ مُحَمدًا يُعْطِي عَطاءً لا يَخْشَى الفاقةَ[٤]»[٥].

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٢) الحَطِيم: هو ما بَيْنَ الرُّكْنِ والباب.
(٣) أَيْ: كثيرةً كأنَّها تملأ ما بَيْنَ جَبَلَيْنِ.
(٤) الفاقة: الفَقْر والحاجة.
(٥) رواه مسلم (٢٣١٢).

تَبَرَّعْتَ لي بالجُودِ حَتَّى نَعَشْتَني[١] وأَعْطَيْتَني حَتَّى حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ
فأَنْتَ النَّدَى[٢]، وابْنُ النَّدَى، وأَخُو النَّدى حَلِيفُ[٣] النَّدى، ما للنَّدى عَنْكَ مَذْهَبُ

أَقُولُ: لَوْ كان شَيءٌ يَلْعَبُ بالقُلُوبِ لكان الكَرَمَ؛ لأنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إليها، فإذا مكَّنك اللهُ مِنَ لُعاعةٍ[٤] مِنَ الدُّنيا، فاشْتَرِ القُلُوبَ؛ فإنَّك إنَّما تَشْتَرِيها بأَرْزَاقِها، وتَرْبَحُ الأَجْرَ والحَمْدَ.

قال حاتمُ الطَّائيُّ:

لَعَمْرُكَ، ما يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا، وضاق بها الصَّدْرُ؟
أَلَمْ تَرَ أنَّ المالَ غادٍ ورَائِحٌ ويَبْقَى مِنَ المالِ الأَحادِيثُ والذِّكْرُ؟

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

الشُّحُّ رَأْسٌ لِلرَّذائِلِ كُلِّها أَمَّا الفَضائِلُ رَأْسُهُنَّ الجُودُ
ابْذُلْ وجُدْ بالمُستطاعِ ولا تَخَفْ فاللهُ في عَلْيائِهِ مَوْجُودُ
يَحْيَا الكَرِيمُ مُبَجَّلًا في قَوْمِهِ أَمَّا البَخِيلُ فجائِعٌ مَحْسُودُ
قاسَى شَقاوَتَهُ لِيُسْعِدَ غَيْرَهُ وإليهِ ذَمُّ الوارثِينَ يَعُودُ[٥]

وهُنَاكَ نَوْعٌ عَزِيزٌ مِنَ الكَرَمِ ـ إنْ لم يَكُنْ أَعْلَاهُ ـ وهُوَ كَرَمُ الرَّجُلِ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ، ويُستدلُّ بِهِ على كَرَمِ النَّفْسِ، وطِيبِ الأَصْلِ.

قال ابنُ المُقَفَّعِ: «عَوِّدْ نَفْسَكَ السَّخَاءَ، واعْلَمْ أَنَّهُ سخاءَانِ:

---

(١) نعشتني: رَفَعْتني، وبابُهُ قَطَعَ.
(٢) النَّدَى ـ بزنَة الفَتَى ـ: الجُود والكَرَمُ.
(٣) الحليف ـ بزنَة الأمير ـ: الصَّديق يَحْلِفُ لصاحبه ألَّا يَغْدِرَ به، والجَمْعُ حُلفَاءُ.
(٤) اللُّعاعة ـ بالضَّمِّ ـ: كُلُّ نباتٍ ليِّنٍ مِنْ أَحْرارِ البُقُولِ، فيها ماءٌ كثيرٌ لَزِجٌ، تُشَبَّهُ به الدُّنيا في قِلَّة البَقَاءِ.
(٥) «بلسم الحياة» مخطوط.

سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يَدَيْهِ، وسَخَاوتُهُ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ، وسَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يَدَيهِ أَكْثَرُهُمَا، وأَقْرَبُهما مِنْ أنْ تَدْخُلَ في بابِ المُفاخرةِ، وتَرْكُهُ ما في أَيْدي النَّاسِ أَمْحَضُ[1] في التَّكَرُّمِ، وأَبْرَأُ مِنَ الدَّنَسِ، فإنْ هُوَ جَمَعَهُما، فَبَذَلَ وعَفَّ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الجُودَ والكَرَمَ»[2].

وأُعْـرِضُ عَنْ ذي المالِ حتَّى يُقالَ لِي: لَـقَـدْ جـاء هـذا جَـفْـوَةً وتَـعَـظُّـما
ومـا بي جَـفَـاءٌ عَـنْ صَـدِيـقٍ ولا أَخٍ ولكنَّهُ فِعْلي إذا كُـنْـتُ مُـعْـدِمـا[3]

عُقُودُ مَرْجَانٍ:

قال ابنُ القَيِّم -رحمه الله-: «فَلِسَانُ حالِ القَدَرِ يَقُولُ للفَقِيرِ الجَوادِ: وإنْ لَمْ أُعْطِكَ ما تَجُودُ بِهِ على النَّاسِ، فَجُدْ عَلَيْهِمْ بزُهْدِكَ في أموالِهِمْ، وما في أَيْدِيهِمْ، تَفْضُلْ عَلَيْهِمْ، وتُزَاحِمْهُمْ في الجُودِ، وتَنْفَرِدْ عَنْهُمْ بالراحةِ».

«مدارج السَّالكين» (٢/ ٢٨٢).

(١) أَمْحَضُ: أَخْلَصُ.

(٢) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٤٤).

(٣) المُعْدِم: الفقير، يُقال: أَعْدَمَ الرَّجُلُ: إذا افتقر.

openkandil.com

إنصاف

إنَّ الإنصافَ خُلُقٌ رَفِيعٌ، ما تَحَلَّى بِهِ أَحَدٌ إلَّا تَرَبَّعَ على القُلُوبِ، وما شَيْءٌ أَقْطَعُ لِوُدِّ ذي الوُدِّ مِثْلَ قِلَّةِ الإنصافِ.

وَلَمْ تَـزَلْ قِـلَّـةُ الإنـصـافِ قاطِعَةً بَيْنَ الرِّجالِ، وإنْ كانوا ذَوِي رَحِمِ

الإنصافُ بَيْنَ النَّاسِ كما عَرَّفَهُ ابنُ القَيِّمِ – رحمه الله –: «أَنْ تُؤَدِّيَ حُقُوقَهُمْ، وأَلَّا تُطالِبَهُمْ بِما لَيْسَ لك، وأَلَّا تُحَمِّلَهُمْ فَوْقَ وُسْعِهِمْ، وأنْ تُعامِلَهُمْ بِما تُحِبُّ أنْ يُعامِلُوكَ بِهِ، وأنْ تُعْفِيَهُمْ، مِمَّا تُحِبُّ أنْ يُعْفُوكَ مِنْهُ، وَأنْ تَحْكُمَ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ بِما تَحْكُمُ بِهِ لِنَفْسِكَ أَوْ عَلَيْهَا»(١).

وقال – رحمه الله –:

وتَحَـلَّ بِـالإنْـصَـافِ أَفْـخَـرُ حُـلَّـةٍ زِيْنَتْ بِها الأَعْـطـافُ(٢) والكَتِفَانِ(٣)

والنَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – **يَحُثُّنا على الإنصافِ، فيقولُ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِهِ»**(٤).

ويقولُ: «وَلْيَأْتِ إلى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إليهِ»(٥).

وَمِنَ الإنصافِ قَبُولُ الحَقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، ولَوْ كان قائِلُهُ بَغِيضًا، ورَدُّ الباطِلِ على كُلِّ أَحَدٍ، ولَوْ كان قائِلُهُ حَبِيبًا.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٠٧) بتصرُّفٍ.

(٢) **الأعطاف**: جَمْعُ عِطْفٍ ـ بالكَسْرِ ـ، وهُوَ الجانبُ.

(٣) «نونِّية ابْنِ القيِّم» بشرح محمد خليل هراس (١/ ٥٢).

(٤) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٧١) من حديث أنس – رضي الله عنه –.

(٥) رواه مسلم (١٨٤٤) من حَدِيث عَبدِ الله بنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما –.

ألا تَرَى أنَّ مَلِكَةَ سَبَإٍ في حالِ كَوْنِها تَسْجُدُ للشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ هي وقومُها، لَمَّا قالتْ كلامًا حَقًّا صَدَّقَها اللهُ فيه، ولَمْ يَكُنْ كُفْرُها مانعًا مِنْ تصديقِها في الحقِّ الَّذي قالَتْهُ، وذلك في قَوْلِها فيما حَكَى اللهُ عنها:

﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، فقال اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ مُصَدِّقًا لها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤).

وقَدْ تَقُولُ قَوْلًا تَرَاهُ صَوابًا، فَيَنْقُدُهُ آخَرُ بميزانِ العِلْمِ الصَّحيحِ، ولَمْ تَجِدْ حَرَجًا مِنْ أَنْ تَقُولَ: أَخْطَأْتُ في قَوْلي، ومَتَى فَعَلْتَ ذلك، فَقَدْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ مِنْ نَفْسِكَ.

عَنِ الرَّبيعِ بنِ سُلَيمانَ قال: سَمِعْتُ الشَّافعيَّ ـ رحمه الله ـ يَقُولُ: «ما أَرَدْتُ الحقَّ والحُجَّةَ على أَحَدٍ، فَقَبِلَها، إلَّا هِبْتُهُ، واعْتَقَدْتُ مَوَدَّتَهُ، ولا كابَرَني على الحَقِّ أَحَدٌ، ودَافَعَ الحُجَّةَ، إلَّا سَقَطَ مِنْ عَيْني»[1].

قال الشاعرُ:

إذا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ ... عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ لَوْ كان يَعْقِلُ

وقال أُستاذُنا عَبْدُ الكريمِ العمادُ ـ حفظه الله ـ:

أَنْصِفْ وإنْ كُنْتَ ذَا جاهٍ ومَرْتَبَةٍ ... وَعُدْ إلى الحَقِّ مَهْما كُنْتَ مُقْتَدِرا

فَمَنْ تَكَبَّرَ في حَقٍّ أُهِينَ بِهِ ... ومَنْ تَوَاضَعَ في حَقٍّ فَقَدْ كَبُرا [2]

وقال ـ أيضًا ـ:

وإنَّ أَحَبَّ النَّاسِ عِنْدي مُنْصِفٌ ... وإنْ قال بي ما لا أُحِبُّ مِنَ الذَّمِّ

وأَبْغَضُهُمْ ـ واللهِ ـ عِنْدي مُنافِقٌ ... مَدائِحُهُ بالزُّورِ شَرٌّ مِنَ الشَّتْمِ

إذا عَلِمَ الإنسانُ مِقْدارَ نَفْسِهِ ... يَرَى أَنَّ سَيْفَ الحَقِّ خالٍ مِنَ الظُّلْمِ [3]

---

(١) «صفة الصَّفوة» لابن الجَوْزيِّ (٢/ ١٦٧).

(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

(٣) «بلسم الحياة» مخطوط.

نَسِيمٌ:

قال ابنُ حَزمٍ — رحمه الله —:

«مَنْ أراد الإنصافَ، فَلْيَتَوَهَّمْ نَفْسَهُ مكانَ خَصْمِهِ؛ فإِنَّهُ يَلُوحُ لَهُ وَجْهُ تَعَسُّفِهِ[1]». «الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).

(١) التَّعَسُّف: الظُّلْم.

obeikandl.com

عِفَّة

مِن وَصِيَّةِ جِبْرِيلَ -عليه السلام- لِرَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «واعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ المُؤْمِنِ قِيامُهُ باللَّيْلِ، وعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»(١).

وَمِن وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «وأَجْمِعِ اليَأْسَ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ»(٢).

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مالك -رضي الله عنه- قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- تِسْعَةً، أَوْ ثمانيةً، أو سَبْعةً، فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟!». وكُنَّا حَدِيثِيْ عَهْدٍ ببَيْعَةٍ، فَقُلْنا: «قَدْ بايَعْنَاكَ يا رَسُولَ اللهِ». ثُمَّ قال: «ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟!». فَقُلْنا: قَدْ بايَعْنَاكَ يا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قال: «ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟». قال: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنا، وقُلْنا: قَدْ بايَعْنَاكَ يا رسولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبايعُكَ؟!. قال: «على أَنْ تَعْبُدوا اللهَ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ، وتُطِيعُوا ـ وأَسَرَّ كَلِمةً خَفِيَّةً ـ ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا».

فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سوط أَحَدِهِمْ، فما يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ(٣).

---

(١) (حسن) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» (١/ ٦١)، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٨٣١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رضي الله عنه-.

(٢) (صحيح) أخرجه ابْنُ ماجَهْ (٤١٧١)، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤٠١) عَنْ أبي أَيُّوبَ -رضي الله عنه-.

(٣) رواه مسلم (١٠٤٣).

هُمُ القَوْمُ، إنْ قالُوا أَصَابُوا، وإنْ دُعُوا أَجَابُوا، وإنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا [١]
ولا يستطيعُ الفاعِلونَ فعالَهُمْ ولَوْ حاوَلُوا في النَّائباتِ وأَجْمَلُوا

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ[٢]، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٣].

قال شيخُ الإسلامِ - رحمه الله -: «فَغِنَى النَّفْسِ الَّذي لا يَسْتَشْرِفُ - أَيْ: يتطلَّعُ - إلى المَخْلُوقِ، فإنَّ الحُرَّ عَبْدٌ ما طَمِعَ، والعَبْدُ حُرٌّ ما قَنِعَ.

وَقَدْ قِيلَ: أَطَعْتُ مَطامِعي فاسْتَعْبَدَتْني. فَكُرِهَ أَنْ يتبعَ نَفْسَهُ، ما استشرفت له؛ لئَلَّا يَبْقَى في القَلْبِ فَقْرٌ وطَمَعٌ إلى المَخْلُوقِ، فإنَّهُ خِلَافُ التَّوكُّلِ المَأْمُورِ بِهِ، وخِلَافُ غِنَى النَّفْسِ»[٤].

قال أبو فراس:

إنَّ الغَنِيَّ هُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ وَلَوَ أَنَّهُ عاري المناكبِ حافي
ما كُلُّ ما فَوْقَ البَسيطةِ كافيًا فإذا اقَنِعْتَ فكُلُّ شَيْءٍ كافي

وقال آخر:

وَأُعرِضُ عن ذِي المَالِ حَتَّى يُقَالَ لِي أَأَحْدَثَ هذا جَفْوَةً وتَغَظُّما
وَمَا بِيْ جَفَاءٌ عَنْ صَدِيقٍ وَلَا أَخٍ ولكِنَّهُ فِعْلِي إذا كُنْتُ مُعْدِمَا

وقال عليُّ بْنُ محمَّدِ بْنِ الحَسَنِ: [٥]

إذا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئَامِ كَفَتْكَ القَناعةُ شَبْعًا وَرِيَّا
فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى وهَامَتُهُ[٥] هِمَّةً في الثُّرَيَّا[٦]

---

(١) أَجْزَلَ لَهُ العَطَاءَ: أَكْثَرَ وأَعْظَمَ.
(٢) العَرَض - بفتحتَيْن -: ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ متاعِ الدُّنيا.
(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٤) «الفتاوى» (١٨/ ٣٢٩).
(٥) الهامة: الرَّأْسُ، والجَمْعُ هَامٌ.
(٦) الثُّرَيَّا: سبعةُ نجومٍ مُنْضَمَّةٌ بَعْضُها إلى بَعْضٍ، تُشْبِهُ العُنْقُودَ.

أَبِيًّا[١] لِنائِلٍ[٢] ذِي نِعْمَةٍ ... تَرَاهُ بِما في يَدَيْهِ أَبِيًّا
فَإِنَّ إراقَةَ ماءِ الحَيَاةِ ... دُونَ إراقَةِ ماءِ المُحَيَّا[٣]

وقال الحريري:

لَعَمْرُكَ، مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... أَسِيرُكَ في الدُّنْيا، وأَنْتَ أَمِيرُهُ
ومَنْ كُنْتَ مُحْتاجًا إليهِ بِمالِهِ ... أَمِيرُكَ في الدُّنْيا، وأَنْتَ أَسِيرُهُ

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله- :

ولي عِزَّةٌ في النَّفْسِ لَوْ هِيَ قُسِّمَتْ ... على النَّاسِ تَلْقَى أَبْأَسَ النَّاسِ سَيِّدا
ولا عَيْبَ في فَقْري وبُؤسي وحاجتي ... ولا عارَ إلَّا أَنْ أَمُدَّ لَهُمْ يَدَا
تَعَفَّفْتُ حتَّى نافَسُوني على الغِنَى ... وأَصْبَحَ حَوْلي أَيْسَرُ النَّاسِ حُسَّدا[٤]

نَتيجةٌ:

عَنْ ثَوْبَانَ -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ تَكَفَّلَ[٥] لِي أَلَّا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالجَنَّةِ؟**».

فقال ثَوْبَانُ: أَنَا. فكان لا يَسْأَلُ أَحَدًا شيئًا.

(رواه أبو داود (١٦٤٣)، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٦٠٣)).

(١) أَبِيًّا: رافِضًا كارِهًا.
(٢) لنائل: لمُعطي خَيْرٍ.
(٣) المُحَيَّا: الوَجْه.
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.
(٥) تَكَفَّل: ضَمِنَ.

obeikandl.com

لـذّةٌ

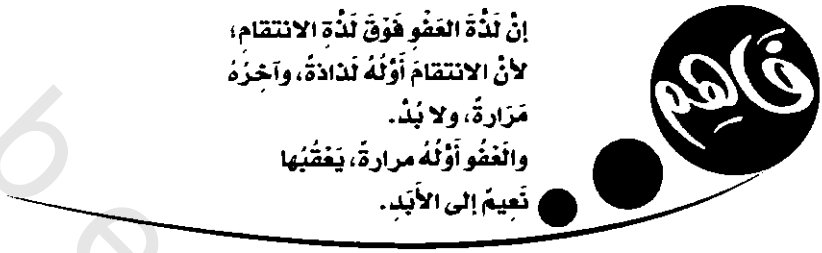

وتَأَمَّلْ معي قَوْلَهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

أي: مَنْ عَفَا فذلك أَقْرَبُ لصلاحِهِ وتَقْواهُ، مَعَ ما فيه مِنْ سلامةِ الصَّدْرِ، وطُمَأْنينةِ النَّفْسِ، والرَّاحةِ مِنْ هَمِّ العَداوةِ.

وقَدْ يَقْلِبُ العَفْوُ والصَّفْحُ العَداوةَ إلى محبّةٍ وصداقةٍ في الحالِ، دلَّ على ذلك قَوْلُهُ ـ تعالى ـ:

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

(فصلت: ٣٤، ٣٥).

فكَيْفَ كانتِ النَّتيجةُ؟ أَليسَتْ قَدْ جاءتْ بـ«إذا» الفُجائيَّةِ الَّتي تَدُلُّ على الحدوثِ الفَوْريِّ في نَتيجَتِها ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؟[1].

أَتَيْتُكَ تائبًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ... وخَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَخْطا فَتابا

أَلَيْسَ اللهُ يُسْتَعْفَى فَيَعْفُو ... وقَدْ مَلَكَ العُقُوبةَ والثَّوابا؟

---

(١) انظر «مكارم الأخلاق» للعُثيمين (ص٢٦).

ياقوتة

قال العلَّامة ابنُ حَزمٍ — رحمه الله —:

«مَنْ أَسَاءَ إلى أَهْلِهِ وجيرانِهِ، فَهُوَ أَسْقَطُهُمْ، ومَنْ كافَأَ مَنْ أَسَاءَ إليهِ مِنْهُمْ، فَهُوَ مِثْلُهُمْ، ومَنْ لَمْ يُكَافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ، فَهُوَ سَيِّدُهُمْ وخَيْرُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ».

«الأخلاق والسِّير» (ص٨٥).

obeikandl.com

إقالةٌ

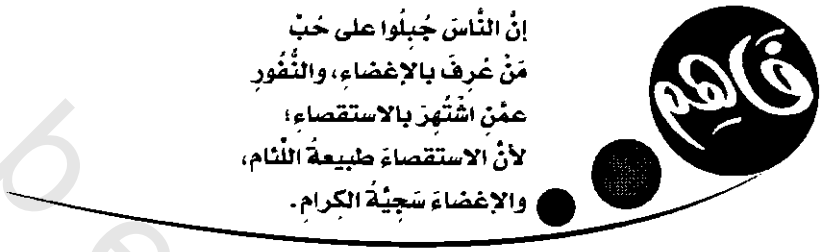

كُلٌّ مِنَّا لابُدَّ أَنْ يَهْفُوَ، ويُحِبَّ أَنْ يَجِدَ مَنْ يَعْذِرُهُ؛ لذلك جاء في الحديثِ: «**مَنْ أقال**[1] **مُسْلِمًا، أقال اللهُ عَثْرَتَهُ**»[2].

ويتأكَّدُ قَبُولُ العُذْرِ في حقِّ صاحبِ المَنْزِلَةِ والوَجَاهةِ الَّذي لا يُعْرَفُ بالشَّرِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ – ﷺ – أَمَرَنا بإقالةِ عَثَراتِهِ بقَوْلِهِ: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئاتِ**[3] **عَثَراتِهِمْ إلَّا الحُدُودَ**»[4].

ومن شوارد العباس بن الأحنف -عفا الله عنه- قوله:

تَحَمَّلْ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وإنْ كُنْتَ مظلومًا فَقُلْ أنا ظَالِمُ
فإنَّكَ إنْ لم تَغْفِرِ الذَّنْبَ في الهَوَى ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَى وأَنْفَكَ رَاغِمُ

وقال أبو العتاهية – رحمه الله –:

خَلِيْلَيَّ إنْ لَمْ يَغْتَفِرْ كُلُّ وَاحِدٍ ... عِثَارَ أَخِيهِ مِنْكُمَا فَتَرَافَضَا

---

(١) **الإقالة**: الصَّفْح عَنِ الذَّنْب.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٣٤٦٠)، وابْنُ ماجَهْ (٢١٩٩) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٢٩٥٤)، و«صحيح الجامع» (٦٠٧١).

(٣) قال الشَّافعيُّ – رحمه الله – في تعريفِ ذَوِي الهَيْئاتِ ـ كما في «الصَّحيحة» (٦٣٨) ـ : «إنَّهُمُ الَّذينَ لَيْسُوا يُعرفون بالشَّرِّ، فَيَزِلُّ أَحَدُهُمْ الزَّلَّةَ».

(٤) (صحيح) رواه أبو داوُدَ (٤٣٧٥) عَنْ عائشةَ- رضي الله عنها -، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٦٣٨).

وَمَـا يَلْبَثُ الخِـلَّان إنْ لَمْ يُجَـوِّزَا ... كَـثِيرًا مِـنَ المْكْـرُوهِ، أن يَتَبَاغَضَا
خَلِيْلِيَّ بَـابُ الْفَضْلِ أنْ يتوَهَبَا ... كَـمَا أَنَّ بَـابَ النَّقْصَ أنْ يتَقَارَضَا

وقال الحريري ـ رحمه الله ـ واحسن:

سَـامِـحْ أَخَـاكَ إذَ خَـلَـط ... مِـنْـهُ الإِصَـابَـةَ بِـالـغَـلَـطْ
وَتَجَـافَ عَـنْ تَـعْـنِـيْـفِـهِ ... إنْ زَاغَ يَـوْمًـا أو قَـسَـطْ[1]
واقْـنَ الـوَفَـاءَ[2] وَلَـوْ أخـلَّ ... بِـمَا اشْـتَرَطْـتَ ومـا اشْـتَرَطْ
واعـلـم بِـأَنَّـك إنْ طَـلَـبْـتَ ... مُـهَـذَّبًـا رُمْـتَ الـشَّـطَـطْ[3]
مـن ذا الَّـذي مـا سَـاءَ قـطْ ... وَمَـنْ لَـهُ الحُـسْـنَـى فقط

وَمِن دُرَرِ العلَّامةِ ابنِ القيِّم ـ رحمه الله ـ قَولُهُ:

«مَنْ أساء إليك، ثمَّ جاء يَعْتَذِرُ عَنْ إساءتِه؛ فإنَّ التَّواضُعَ يُوْجِبُ عَلَيْكَ قَبُولَ مَعْذِرَتِه ـ حقًّا كانت أَوْ باطلًا ـ وَتَكِلُ سَرِيرَتَهُ إلى الله ـ تعالى ـ، كما فعل رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ في المُنافقين الَّذين تَخَلَّفُوا عَنْهُ في الغَزْوِ، فلَّما قَدِمَ جاءُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ، فَقَبِلَ أَعْذَارَهُمْ، ووَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إلى الله ـ تعالى ـ[4].

وعَلامَةَ الكَرَم والتَّواضع أَنَّكَ إذا رَأَيْتَ الخَلَلَ في عُذْرِه، لا تُوقِفُهُ عليه، ولا تُحَاجُّهُ، وقُلْ: يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ كما تَقُولُ، ولَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكانَ، والمَقْدُورُ لا مَدْفَعَ لَهُ، ونَحْوَ ذلك»[5].

---

(١) قسط: جار وظلم.
(٢) أقن الوفاء: احصل عليه واحتويه.
(٣) الشطط: مجاوزة الحد.
(٤) انظر «صحيح البخاريِّ» (٤٤١٨).
(٥) «تهذيب مدارج السالكين».

obeikandl.com

ومن درر أبي الحسن الطغرائي -عفا الله عنه-:

أَخَاكَ أَخَاكَ فَهُوَ أَجَلُّ ذُخْرًا ... إذا نَابَتْكَ نَائِبَةُ الزَّمَانِ[٦]

وإن بَانَتْ إِسَاءَتُهُ فَهَبْهَا ... لِمَا فِيهِ مِنَ الشِّيَمِ الحِسَانِ

تَرِيدُ مُهَذَّبًا لا عَيْبَ فِيهِ ... وَهَلْ عُودٌ يَفُوحُ بِلَا دُخَانِ

وقال غيره:

إِذَا مَا أَتَى الجَانِي مُقِرًّا بِذَنْبِه ... يَسُومُكَ عَفْوًا[١] لا تُخَيِّبْ لَهُ ظَنَّا

فَإِنْ كَانَ مِنْ أهلِ المَسَاءَةِ والخَطَا ... فَكُنْ أَنْتَ من أَهْلِ التجاوز والْحُسْنَى

وقال الشَّافعيُّ -رحمه الله-:

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا ... إِنْ بَرَّ[٢] عِنْدَكَ فيما قال أَوْ فَجرَا[٣]

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا[٤]

مسك:

قال الحسن البصري -رحمه الله-: «أَفْضَلُ أَخْلَاقِ الْمُؤمِنِ الْعَفْوُ».

(١) نابتك نائبة: أصابتك مصيبة.

(٢) يَسُومُكَ عفوًا: يسألك ويطلب منك.

(٣) بَرَّ: صدق.

(٤) فَجَرَ: كَذَبَ، وبابُهُ دَخَلَ.

(٥) ديوان الشَّافعيِّ (ص٦٢) تحقيق البقاعيِّ.

obeikandl.com

تَوْقِيرٌ

إنْ تَعْزِيرَ[١] وليِّ الأمْرِ وتَوْقِيرَهُ
أصلٌ مِنْ أُصولِ أَهْلِ السُّنَّةِ؛
لأنَّ مَنِ الْتَمَسَ ذَلَّهُ فَقَدْ ثَغَرَ[٢]
في الإسلامِ ثُغْرَةً.

قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «سِتُّ خِصَالٍ ما مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ في واحدةٍ مِنْهُنَّ إلَّا كُنْتُ ضامنًا على اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ...» وذكر منه: «رَجُلٌ أتى إمامًا لا يَأْتيهِ إلَّا ليُعَزِّرَهُ ويُوَقِّرَهُ، فإن مَنْ مات في وَجْهِهِ ذلك، كان ضامنًا على اللهِ»[٣].

وقال - ﷺ -: «سَيَكُونَ بَعْدِي سُلْطَانٌ فعزِّروهُ، مَنِ الْتَمَسَ ذُلَّهُ، ثَغَرَ ثُغْرَةً في الإسلام، ولَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ توبةً، حتَّى يُعيدَها كما كانتْ»[٤].

قُلْتُ: لا يَزَالُ دَأْبُ أَهْلِ البِدَعِ قَدِيمًا وحَدِيثًا تصيُّدَ عَثَراتِ الوُلاةِ، ونَشْرِها مِنْ على المَنَابِرِ والمَحَافِلِ ومجالسِ الوَعْظِ، فَثَغَرُوا في الإسلامِ ثُغْرةً لا تُسَدُّ، وثَلَمُوا ثُلْمَةً لا تُصْلَحُ، وتَنَكَّبُوا طَرِيقَ سَلَفِهِمُ الصَّالحِ، وأَمْثَالُ هؤلاءِ عَتَبُوا على أبي الوفاء ابْنِ عقيلٍ - رحمه الله - تقبيلَ يَدِ السُّلْطانِ، حِيْنَ صافَحَهُ!، وحُقَّ لَهُ مَا فَعَلَ، فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ كان والدي فَعَلَ ذلك، فقبَّلْتُ يَدَهُ، أكان خَطأً، أَمْ واقعًا مَوْقِعَهُ؟.

---

(١) التَّعزير: التَّعظيم والتَّفخيم.

(٢) ثَغَرَ: ثَلَمَ، وبابُهُ قَطَعَ.

(٣) (صحيح) أخرجه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٣٨٢٢) عن عائشةَ -رضي الله عنها-، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١١٤٨).

(٤) (صحيح) أخرجه ابْنُ أبي عاصمٍ في «السَّنَّة» (١٠٧٩) عن أبي ذَرٍّ -رضي الله عنه-، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٤٩٩).

قالوا: بَلَى.

قال: فالأَبُ يُرَبِّي وَلَدَهُ تَرْبيةً خاصَّةً، والسُّلْطانُ يُرَبِّي العالَمَ تَرْبيةً عامَّةً؛ فَهُوَ بالإكرامِ أَوْلَى»[1].

قُلتُ: لو كُنْتُ أنا مَكَانَهُ، لقبَّلْتُ رِجْلَهُ، إذا كان لا يَحْصُلُ تَعْزِيرُهُ وتَوْقِيرُهُ إلَّا بذلك.

فَرَائِدُ:

قال سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُسْتَرِيُّ — رحمه الله —:

«لا يَزَالُ النَّاسُ بخَيْرٍ ما عظَّموا السُّلْطَانَ والعُلَمَاءَ، فإنْ عظَّموا هذَيْنِ؛ أَصْلَحَ اللهُ دُنْياهم وأُخْراهُمْ، وإنِ اسْتَخَفُّوا بهَذَيْنِ؛ أَفْسَدُوا دُنْياهم وأُخْراهُمْ». «تفسير القُرْطُبيِّ» (٥/ ٢٦٠-٢٦١).

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٧٦).

obeikandl.com